

سيرة بني هلال



شوقي عبد الحكيم

سيرة بني هلال

تأليف
شوقي عبد الحكيم



رقم إيداع ١٧٧٣٤ / ٢٠١٤

تدمك: ٢ ١٢٩ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ + ٢٠٢ فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ + ٢٠٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2017 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

Copyright © Shawky Abdel Hakeem 1983.

All rights reserved.

المحتويات

٧	مقدمة
١٥	شخصية أبي زيد في سيرة بني هلال
٢١	الريادة
٢٩	سعدى ومرعي
٣٣	الخفاجي عامر العراقي
٣٧	أسر دياب في قبرص
٤٥	الهلالية يحاربون اليهود في فلسطين
٥١	بنو هلال في دمشق
٦١	الهلالية في القدس وغزة
٦٧	الهلالية في مصر
٧٧	اغتيال الخفاجي عامر وابنته دوابة
٨٥	أبو زيد يزور الأسرى في زي امرأة
٩٣	هزائم الهلالية وعودة دياب
٩٩	عشق سعدى لمرعي وخيانتها لقبيلتها ... وطنها
١٠٣	دياب يقتل الزناتي ويسبي سعدى ويحكم الغرب
١٠٩	دكتاتورية دياب وأسر سعدى
١١٣	مأساة سعدى ومرعي
١١٧	خلافات بني هلال والهزائم
١١٩	اغتيال دياب للسلطان وأبي زيد
١٢٥	مصرع دياب وأبناء الشهداء

مقدمة

هذه السيرة الهلالية السياسية الكبرى

من الملفت والمؤسف أن النص الأصلي المدوّن لهذه السيرة الهلالية السياسية الكبرى، ما يزال إلى أيامنا في عداد المخطوطة المحفوظة بمكتبة الدولة المركزية ببرلين، مثلها مثل مثيلتها «الأميرة ذات الهمة» (٢٦ ألف صفحة).

بمعنى أن النص الفعلي للهلالية، لم تصله إلى أيامنا يد المطبعة بعد، وما يزال في عداد النص المخطوط اليدوي، ومن هنا فالاختلافات كبيرة، والمغالطات لا تنتهي، والإضافات التي أضافها الرواة والنساخ والمنشدون على مدى العصور تتبدى واضحة بين ذلك النص المخطوط للهلالية، وبين بقية النصوص والطبعات الشعبية المتداولة على طول عالمنا العربي، من محيطه لخليجه، وهي بالتحديد الرقعة الجغرافية التي تغطي هذه السيرة حركتها من حروب وهجرات وأحداث لا تبعد بنا، بتحالفاتها وتناقضاتها، عما نعانیه اليوم على طول البلدان والكيانات العربية، حتى ليبدو أن أحداث سيرة الهلالية كانت على دراية قومية وافية منذ حوالي عشرين قرناً من الزمان، في حروبها وتصديها لليهود، سواء في خيبر والجزيرة العربية، أو في منطقة شرق الأردن المتاخمة لفلسطين — التي تدعوها السيرة ببلاد «السرو وعبادة» — أو في فلسطين ذاتها، في القدس وغزة وعكا ويافا.

بل هي تتعقب قلاع وفلول اليهود — كما تدعوها السيرة وتسوقها بشكل مباشر — في حلب الشهباء، واللاذقية — التي فيها أُسر دياب بن غانم — والقلاع المتاخمة لحماة وحمص ودمشق، وهكذا.

وتُلقي المخطوطة الرئيسية للسيرة المزيد من الضوء الساطع على منابع ومكونات هذه السيرة، بالإضافة إلى حفاظها على حلقاتها الرئيسية، التي هي في عداد ثلاث سير متتابعة، وتضرب أولاهما بجذورها في العصور التي تعارفنا عليها بالجاهلية السابقة لظهور الإسلام، والتي قد تصل بنا إلى بضعة آلاف سنة؛ إذ تغطي الحلقة الأولى للسيرة بدء تواجد العرب التاريخي في الجزيرة العربية منذ الجاهلية الأولى أو العصور السابقة واللاحقة للإسلام، وهجرتهم الأولى إلى الأردن وفلسطين أو بلاد السرو، إلى أن تتوقف بنا الأحداث مع بدء ظهور الإسلام ... وكيف أن هلال بن عامر وفد على النبي ﷺ على رأس قومه — أو قبائله «المتحالفة» — ولعب أولئك الهالليون دورًا في ترسيخ أركان الدين الجديد، حتى إن النبي أسكنه وادي العباس.

وتبدت فيما بعد فروسية وشجاعة الهلالية في جبل «المنذر»، أبو العرب المناذرة، وكيف تعرّف إلى الأمير «مهبذ» وتزوج بابنته «هذبا»، حتى إذا مضت على زواجهما عشرة أعوام ولم يُرزق منها بطفل، قرر الزواج بأخرى.

ثم رحل إلى بلاد «السرو وعبادة» — إلى الأردن وفلسطين — حيث تزوج بابنة الملك الصالح واسمها «عذبا». وبعد ذلك نرى السيرة تحدثنا أن «هذبا» التي خلّفت له «جابرًا»، كما وضعت «عذبا» جبيرًا، ولم يمضِ على ولادة الطفلين زمن طويل حتى ترى الغيرة تدب بين الاثنين ونرى كلاً منهما تريد المنذر لها ولابنها، وينتهي الأمر بطلاق «عذبا» ورحيلها مع ابنها «جبير» إلى نجد. ومن نسل جابر وجبير انحدرت إلينا بطون بني هلال ونسائهم الذين قاموا بالأدوار الهامة في مختلف فصول الحلقة الأولى من السيرة، فجابر ولد له «عامر، وتامر، وهشام، وحازم»، ومن نسل هؤلاء انحدر «رزق» والد أبي زيد، وسرحان والد السلطان حسن بن سرحان.

أما جبير فقد ولد له «رياح، وحنظل، والنعمان»، ومن ذرية رياح جاء دياب، فمن سلسلة النسب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر، بينما دياب من ذرية جبير.

وعقب جيل جابر وجبير يرد خبر زواج «رزق» من «خضراء»، وكيف أنه رُزق منها بفتاة تدعى «شicha» وفتى يدعى «بركات»، وكان الولد أسود اللون؛ لذلك اتُّهمت خضراء في عرضها، وانتهى الأمر إلى رحيلها وابنها إلى بلاد الأمير الزحلان عدو بني هلال، فيكرم

الأمير وفادتها ويعنى بها وبتربية ابنها ويوكل أمر تعليمه إلى كاهن أو معلم، فكان يعلم بركات — أو أبا زيد الهلالي — العلوم والحرف واللغات والحيل والمكائد التي اشتهر وتفوق بها:

ولساني عبراني اليهود بينفعك ولسان سرياني تصير مشير

وكذا الطب والرياضيات والكيمياء، والصباغة والمعادن:

والطب أيضًا دانيال أعلمك وعلم الحساب وكل علم ظهير
وأعلمك علم الصباغات كلها تصبغ لروحك ما تريد يا أمير

ويحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان، فيتصدى لهم بركات ويأخذ والده أسيرًا، ويعترف له الهلاليون بشجاعته، ويطلقون عليه اسم «سلامة» ويُعجب به الزحلان، فيزوجه بابنته «غصن البان» وتعلو مكانة «سلامة» في أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته وذكاءه ومهارته آخذة في الزيادة؛ لذلك تعارفوا عليه باسم «أبي زيد الهلالي سلامة»، وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين مع الزحلان أو قبائل بني زحلان تنتقل إلى جيل سرحان، وتحدثنا عن خبر تعرفه بشما، ووقعهما في أسر الإفرنج ونجاتهما بحيلة، من تلك الحيل التي اشتهر بها الهلالية، خاصة أبا زيد.

وشما أو شماء هنا في موقع الكاهنة أو الإلهة الأنثى القمرية، أو التي تتبع التقويم القمري، وتقود المهاجرين مشيرة بالحرب والسلام والمشورة، كما هو حال أولئك العرب الجاهليين، وتقويمهم القمري وليس الشمسي، وهو ما واصل تواتره كما هو معروف بالنسبة للتقويم الهجري القمري السائد إلى أيامنا.

فالسيرة الهلالية تفرط إلى أقصى حد بالنسبة لظاهرة شخصياتها الأنثوية، ومثل تلك الأميرة الكاهنة شماء:

انظر لشامتها	هذي علامتها
انظر لقامتها	شبه الردينية
الشعر مثل الليل	كأنه سباسب خيل
والوجه مثل السيل	بعيون هندية

سيرة بني هلال

بل إن السيرة في تاريخها لأجيالها المبكرة تضيف الكثير من الحكايات والفابولات الجانبية والاستطردادية حول قصة الأمير سرحان قائد التحالف الهلالي وحبّه وتعشقه لشماء والدته:

شما تلفتيني بحبك ضنيتيني
قومي واسقيني من فوق شبربة
بالليل أنا أزورك وها الوقت دا شوبة

فهذه الإلهة الكاهنة شما، التي كان لها وحدها «ثلث المشورة» عبر حروب ومنازعات بني هلال في الهند وسرنديب واليمن والجنوب العربي بعامة ... هذه إلهة تتشابه في الكثير من الوجوه مع إلهات الحرب الأنثيات، وأبرزهن الإلهة «أثينا» في قيادتها للتحالف القبلي الهليني اليوناني في حروب وحصار طروادة.

ومثلها هنا مثل «الجازية»، فيما سيلي من أحداث الريادة وفتوحات بني هلال في الشام وفلسطين ومصر وليبيا لحين حصار تونس والمغرب العربي بعامة حتى الأندلس التي كان يحكمها أبو زيد الهلالي.

وهنا نكون قد وصلنا إلى الحلقة الثانية، أو المجلد الثاني لسيرة الهلالية، التي تبدأ أحداثها برحلة السلطان حسن وأبي زيد من بلاد السرو التي تُرجح أنها وادي الأردن وفلسطين إلى نجد، بقومهما بالطبع بنو دريد وبنو الزحلان إلى نجد، حيث تعيش قافل بني زغابة المنحدرة من ذرية جبير، إلى أن تصل بنا إلى نسب بطل التحالف اليمني والجنوب العربي بعامة، الأمير غانم، وابنه دياب.

أما السبب الدافع لتلك الهجرة، من ربوع وادي الأردن وفلسطين، فلم يكن سوى القحط والجفاف.

والملفت هنا أنهم عبر هجرتهم الجماعية إلى نجد، يخوضون أولى حروبهم، مع من؟ مع يهود التحالف اليهودي الخيبري، وهي حروب طويلة ومضنية تستغرق وقائعها الجانب الأكبر من الحلقة الثانية للهلالية، لحين تحقيق انتصاراتهم على اليهود الخيبريين الذين كانوا في بعض عصورهم التاريخية يتصدون لمحاربة الأكاسرة الفرس المجوس.

ففي هذا الجزء أو الحلقة الثانية للهلالية وسيرتهم، تستقر تحالفاتهم من عرب نجديين أو حجازيين قيسيين، وجنوبيين يمينيين قحطانيين أو حميريين.

وتجيء هذه التحالفات تحت شارة أو راية أو طوطم الهلال.

فيقدم السلطان حسن بن سرحان على الزواج من أخت دياب بن غانم وتدعى «نافلة»، وفي ذات الوقت يقطع السلطان حسن عهده لقائد ورأس التحالف اليمني دياب بن غانم على أن يزوجه أخته «نور بارق» التي تسمت بالغازية أو الجازية، التي سترث أمها السالفة «شماء» في قيادتها لحروب وهجرات بني هلال حتى ليصبح لها ثلث المشورة.

وتحدث عبر هذه الحلقة الثانية سلسلة من الحروب والإغارات القبلية تمتد ساحتها على طول الجزيرة العربية.

فنجذ وصفاً للمعارك التي قامت بين الهلالية، والعقيلي، وحنظل، والهيدي، ثم تنتهي إلى الاصطدام بين أبي زيد ودياب، ولا تنتهي هذه الحلقة إلا بعد أن تطيل في الحديث عن بطولة العرب عامة والهلالية خاصة وانتصاراتهم على الإفرنج.

وتغربية بني هلال، أو الحلقة الثالثة من حلقات هذه السيرة، تعنى بأعمال الهلاليين في الغرب خاصة في شمال إفريقيا. وهذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي صحيحة لا شك فيها، كما أن بني هلال عرفتهم الجاهلية وعاشوا في الإسلام وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر في سبيل العمل على تعريب تلك البلاد جنساً وثقافة، فابن الأثير يحدثنا في كامله بأن رسول الله ﷺ تزوج في العام الرابع من زينب بنت خزيمة أم المساكين وهي من بني هلال، ثم يذكرهم مرة عند الحديث عن غزوة هوازن ومرات كثيرة أخرى في مناسبات مختلفة، أما خروجهم إلى إفريقيا، فقد ذكره أكثر من واحد من المؤرخين، أذكر منهم هنا ابن خلدون، فقد جاء في ص ٦٢-٦٣ من الجزء الرابع من تاريخه ما نصه:

كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بإفريقيا وخطب للقائم العباسي وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمئة، فكتب إليه المستنصر يتهده، ثم إنه استوزر الحسين بن علي التازوري بعد.

إلى أن يحل الجذب بنجد والحجاز، ولا تجد هذه القبائل البدوية الرعوية مقرًا لها سوى الهجرة والترحال بحثًا عن الزرع والضرع. فيستقر الرأي على ضرورة استكشاف المسالك إلى البلدان المتاخمة للجزيرة العربية، وهكذا اندفع فارس التحالف الهلالي أبو زيد الهلالي، مصطحبًا الأمراء الثلاثة أبناء السلطان حسن بن سرحان، مرعي ويونس ويحيى إلى تونس؛ ليقعوا في أسر حاكمها الزناتي خليفة، فيأمر بسجنهم بينما يطلق سراح أبي زيد ليعود إلى نجد، وبدلاً من إحضار فدية الأمراء الأسرى، فإنه يجهز الجيش لغزو تونس.

وهكذا يسير أبو زيد على رأس قومه بني زحلان، والسلطان حسن مع بني دريد، ودياب بن غانم على رأس قومه بني زغبة، ويؤتى بالجازية من مكة لتكون في الطليعة، ثم نقرأ قصصاً كثيرة حول هذه الجيوش والتقاءها بالخفاجي عامر، والملك الغضبان، والخزاعي، وشبيب التبعي والبردويل بن راشد، وأشهرها هي قصة بني هلال مع «الماضي» حاكم صعيد مصر، وما كادت تتحرك هذه الجيوش لملاقاة الزناتي خليفة حتى زودها أبو زيد بخططه الحربية الخطيرة، فهو يضلل جواسيس العدو مرة، ويستولي على عيون المياه مرة أخرى، ويأتي بحيل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب المعاصرين، وقد أطلق مرة المناادي ينادي العرب: «كل من كان عنده ناقة والدة يبعد ابنها عنها أو فرس والدة يبعد ابنها عنها، وكل من كان عنده حصان طلوق يجيبه عند فرس شايح ويلحقونا على عين الخطيري، وتخلي العرب كلهم يدقوا طبولهم في نزولهم على العين، (فسمع الزناتي حنين المهاري، وصهيل الخيل، وحس الطبول)، فينكسر قلبه قبل ما يجي لنا الحرب.» كما أنه كثيراً ما استخدم النساء للتسرب إلى داخل البلاد والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الذعر بين الأهليين والتمهيد لدخول الجيوش، وكان تنفيذ هذه المهمة يوكل عادة للجازية التي كانت تقوم بها خير قيام. فاسمعها مثلاً تتحايل على منصور أحد بوابي تونس وتمنيه وتغريه بمختلف المغريات:

افتح لا تخالف	إنك رجل عارف
وانظر د الوصايف	لرية وسارة
روحي يا صبية	ماد لا بلية
قد جتنا المنية	لعند الديار
وشوف نجلا المliche	مع حسنة الرجiche
حين ترخي المسيحة	مع طرف الخمار
تنصب لك علامة	ما بين الغراما
قل يالله السلامة	في هذا النهار

وبعد حديث طويل نجد الجازية تتغلب على منصور، ويفتح لها ولن معها من نساء ورجال البابَ ويتمكن الهلاليون من إطلاق سراح مرعي ويونس، ثم تدور الدائرة على الزناتي فيُقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سعدى التي شُغفت بمرعي عندما كان في

سجن أبيها، فهي التي أشارت على الهلالية بإرسال دياب إلى أبيها ومنازلته؛ لأن دياباً أقدر الفرسان على منازلة خليفة.

خلا الجو للعرب في تونس، واستولوا على عروش الغرب السبعة، وشرعوا في تقسيمها بينهم كما أخذوا في الاستعداد لغزو مراكش. وهنا نجد النزاع الذي كان قائماً بين العرب في الجزيرة — أعني بين اليمنية والقيسية — ينفجر مرة أخرى في إفريقية، فيمثل أبو زيد القيسية ودياب اليمنية، وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد، فهي في جدول الأنساب الذي ساقته من قبل جعلت دياباً ينحدر من فرع تجري في عروقه دماء حمير، فهو دياب بن غانم بن رياح بن حمير بن رياح بن جبير، فذكر «حمير» هنا لم يأت عبثاً وإنما تمهيد لسائر الخصومات التي قامت بين أبي زيد من ناحية ودياب من ناحية أخرى، وهو يعلل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبي زيد فيما بعد.

أدت هذه القبائل القيسية رسالتها في شمالي إفريقية وجعلته عربياً جنساً وثقافة وديناً حتى يومنا هذا، وبعد ذلك نقرأ خبر انتقال دياب إلى السودان والحبشة، ويُقتل دياب ويتولى ابنه نصر الدين الزغبى حكم بلاد الغرب، وتنتقل بعض القبائل القيسية إلى صعيد مصر ثانية، فأعلى النوبة، فالخرطوم، فدارفور، حيث نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الرزيقات نسبةً إلى رزق والد أبي زيد وقبيلة سليم نسبةً إلى بني سليم، وهنا تؤيد السيرة أبحاث المؤرخين ورجال اللغات السامية، فهم مجمعون على أن لهجة صعيد مصر، وعرب أولاد علي غرب الإسكندرية، ومالطة، وشمالي إفريقية، وأعلى النوبة، وكردفان، وجنوب الخرطوم، ودارفور، لهجة واحدة لها مميزات الخاصة التي تميزها عن سائر اللهجات العربية.

وأخيراً يمكن القول: إن استقرار هذه القبائل العربية خارج الجزيرة لم ينسها يوماً نجداً، وجمال نجد، وحرية نجد، وقد عبّر مرعي عن هذا الحب بقوله يخاطب سعدى بنت خليفة:

يا سعدى نجد العريضة مرية ربيت بها أهلي وكل جدود
بلدي ولو جارت عليا مرية وأهلي ولو شحت عليا تجود

وهكذا حكم الجيل الثاني الذي تعارفت عليه سيرة الهلالية، بجيل اليتامى، من أبناء السلطان حسن ودياب بن غانم، وأبي زيد الهلالي العالم العربي، مشرقاً ومغرباً حتى الأندلس ومداخل أوروبا الجنوبية.

شخصية أبي زيد في سيرة بني هلال

وإذا ما توقفنا عند ملامح ومكونات البطل المحوري لهذه السيرة، والقوة الدافعة لأحداثها، أبي زيد الهلالي سلامة، نجد أنها خليط غير بعيد عن بطل ملحمي مثل عنتر من حيث اللون، والمأثورات أو الفابيولات المصاحبة لنموه كطفل قدري، جاء على غير لون آبائه، ولازمه بالتالي الاضطهاد، بسبب لونه «الغرابي» الأسود حتى إنه برغم ما أسداه «أبو زيد» من انتصارات للتحالف القبائلي على الهلالي فأصبح الفارس الهلالي الأول، ظلت تلاحقه سياط لونه الأسود، وبالتالي السقوط العبودي الطبقي أو الاجتماعي.

فعندما وقعت المشادة الشهيرة بين الجازية كاهنة التحالف الهلالي، وابنة عمه، وبين زوجته «العالية» بنت جابر حين تزاحمتا على مشارف إحدى مخاضات المياه بمصر ثم بتونس بعد فتحها بهودجيهما، فما كان من الجازية رأس «الأرستقراطية» القبلية إلا أن سبّت العالية زوجة أبي زيد واصفة إياها بأنها «عشيقة عبدنا»، وكانت تعني بهذا طبعا أبا زيد، وهو الذي فتح لتلك القبائل التي ثقل عليها الحصار بالقحط، طريق هجرتها الجماعية إلى تونس والمغرب العربي بعامة.

وظل يُستقبل في رحيله وإيابه استقبال الأبطال الشعبيين بحق «اليوم قد أتانا من هو عزنا حمانا»^١

^١ تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، طبعة صبيح القاهرة ص ٣٠.

وأبرز ملامح أبي زيد هو قدراته على التنكر والتخلص من أعتى المآزق، فهو كما تصفه السيرة «يصبغ حاله سبع صبغات، ويَتقن الحديث بسبع لغات»،^٢ منها: العبرية واليونانية والسريانية والفارسية.

فمنذ أول أسر وقع فيه أبطال بني هلال، حين أسرههم الملك الدببسي — الفارسي — حاكم حلب الشهباء في ذلك الحين، تنكر على هيئة درويش أعجمي ولبس طيلساناً وحادث الملك الدببسي بلسانه الفارسي بعد أن تحايل على حراسه المقربين وخدَّرههم بملبسه الحلبي، حين سأله: «ماذا تأكل يا شلبي؟» فأجابهم: «هذا ملبس حلبي.» إلى أن حقق انتصاره على الحكام الفرس منشداً:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة	لا يكتم الأسرار غير الأصايل
ولا يكشف الأخبار غير خائن	رديء الأصال من قوم أراذل
أنا أبو رزق من أهل عامر	وأمي شريفة من خيار القبائل
سُميت أبا زيد على الناس زايد	كريم شجاع من كرم أفاضل

فحيل أبي زيد الهلالي لا تتوقف عند المعرفة بلغات عصره، وما يتفرع عنها من لهجات، متناهية الانغلاق، ولا في القدرة الفائقة على التنكر والتحويلات، بل إيماءات الدراويش والشعراء الجوالين والحواة والحكايتية والكهنة والحكماء والنساء الخليعات والغوازي والمهرجين والعيَّارين ... بل هو كان على معرفة كبيرة بمحصلة معلومات، منها ما هو أسطوري وجغرافي وكوني، تبدت في حلوله للمحاذير والألغاز التي من مهامها اختبار قدرات البطل وذكائه وتعويق مآربه وطموحاته.

من ذلك أنه سُئل ذات مرة من يهودي صاحب قلعة في فلسطين يُدعى أبا بشارة: «أخبرني كم طير نزل بالكتاب؟»^٣

فقال له: «تسعة: الذباب والنمل والنحل وطيور الأبايل والجراد وطيور عبس وهو الخفاش والغراب والهدهد.»

^٢ المصدر السابق، ص ١١٣.

^٣ والمقصود بالكتاب طبعاً «العهد القديم» وطيور الوطنية السامية.

هي بالتحديد الطيور السامية — التابو — وهي كما يُلاحظ تخلط بين الطيور والحشرات.

كذلك كثيرًا ما تعرّض أبو زيد لألف باء الأشجار العربية السامية، وأجروميتها الطوطمية المقدسة، وكيف أن مَنْ دهن جسده العاري بزيت السندال لا تلمسه النار. بالإضافة إلى معرفته بالأقوام والقبائل المنقضية مثل: «الزهل والزهل والسبط والنبطان»، والأخيون يُرجح أنهم الأنباط الأردنيون.

فلا تنتهي مخاطره ومآزقه في أديرة اللاذقية، وربوع الشام وفلسطين وقبرص، وأراضي وحضارات منقضية مثل أرض عيلام^٤ المتعاصرة مع عصر جمدة نصر في سومر ٢٩٠٠ ق.م.

كذلك يتبدى أبو زيد على طول سيرة بني هلال بالإضافة لمآثره المستقلة، على معرفة بالكيمياء وكيفية منازل «طباخين الكيمياء» وحجر المغناطيس، ومآثره التي لا تنتهي والتي يغلب عليها الهجاء والمزاح، على طول معظم الكيانات العربية مرورًا بنجوع الجزيرة العربية والشام، وقرى مصر بخاصة وكفورها، حتى إذا ما انتقلت مآثراته إلى ليبيا وتونس ومراكش اكتست مآثراته ونوادره مسحة شعائرية، فأصبح يُدعى سيدي بو زيد «فيتبرك به الفقراء والواجفون والمضطهدون المهانون بعامة».

فكان يتسمى «بسياج الضمن، غفير البيض، حمى — أو حامي — المسكين»^٥ كما اشتهر بخرجه العجيب وطرقه التي كلها مسالك.

ويكاد يصعب للغاية، تصور الكم الكبير جدًا من المآثرات والأشعار الشعبية والهجاء والنكات، التي تدور في فلكه على طول البلدان والكيانات العربية، التي كانت يومًا مسرحًا لتلك الهجرة الجماعية التي فاض بها الخزان البشري للجزيرة العربية وأعراها.

فمآثرات تغطي سوريا العليا، ووادي الرافدين بعامة، ومصر العليا «الصعيد»، ومدن الدلتا — خاصة بلدة بلبيس — بالإضافة للمغرب العربي في ليبيا وقرى تونس والمغرب والجزائر حتى الأندلس، وجبال البرانس.

^٤ التغريبة ص ١١٥.

^٥ التغريبة ص ٢٢٤.

فشخصيته عبارة عن وعاء كوني لكل المتناقضات: فهو شاعر عنيد، ونائحة وماجن ولوطي — كما وصفه دياب بن غانم — ومنقذ لكل حائر، كالخضر وغيره، وقديس أو أنه مسحة شعائرية تطغى على مجمل ما ذكرنا من نقائص وفضائل.

فكانت تصل به حيله وأحابيله إلى حد التنكر تحت جلود الحيوانات في هيئة مهرج لأميرات بني هلال عبر احتيالهن على حكام البلاد التي يجتازونها، ومنهم حاكم مصر الملقب بالفرمند، وتسمى بقشمر: «فعند ذلك تجهزت البنات في الحال وفعل أبو زيد كما أشار، وكانت هذه البنات من المحصنات وكان في جملةهن وطفا بنت دياب، وجمال الطعن بنت أبي زيد، وبنت القاضي بدير، والست ربا، النعام، وجوهر العقول وسعد الرجا. ولبس أبو زيد قرون من جلد الثعالب والذئاب وتقلد بالسيف من تحت الثياب، وأرعى له سواف طوال من أذنان الكدش والبغال وجعل بزمام ناقة الجازية أم محمد، وقد تعجبت من أفعاله السادات والعمد، وقال له السلطان حسن: لله درك على هذه الحيلة التي لم يسبق عليها أحد! وودعه وسار بمن معه من البنات الأبكار والصناديق والبكار ومن داخلهن الأقمشة الحسان والأبطال والفرسان حتى دخل إلى المدينة، وطلع إلى قصر الفرمند.»

وتنكر أبو زيد الهلالي أمام فرمند مصر، يذكرنا بتنكر كليب — ملك العرب — الأخ الأكبر للزير سالم أبو ليلي المهلهل تحت جلود الحيوانات، لتحرير حبيبته الجليلة بنت مرة التي اغتصبها التبغ اليمني حسان اليماني.

بل الملفت أن كليهما — أبا زير وكليب — اتخذ ذات الاسم للمهرج قشمر. ويبدو أنها عادة عربية سامية راسخة، تتمثل في شعائر التوحيد أو التنكر تحت جلود الحيوانات الطوطمية، فهي منتشرة بكثرة في معظم ملاحمنا وسيرنا العربية، كما أنها منتشرة لدى قبائل إفريقيا الشرقية، ويذكر فريزر أنها «لعبت دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والدينية عند قبائل «أكيكويو» التي تسكن إفريقيا الشرقية، والتي ترجع فيما يبدو إلى أصل عربي»^٦.

فالمعتقد هنا بالنسبة لشعيرة التنكر تحت جلد الحيوان، واكتساب صفاته وقواه الخارقة، فالشخص أو البطل الشعبي بارتدائه جلد الحيوان يطابق بين شخصه والحيوان

^٦ الزير سالم أبو ليلي المهلهل، دار ابن خلدون، بيروت: شوقي عبد الحكيم.

الضحية، والذي يكون بمثابة الحاجز بينه وبين إيذاء القوى الشريرة، بتخليصه من هذه القوى الغريبة حتى لا تتملكه، عبر شعائر التحولات والتمثل بالمولود الجديد من الجدي إلى النعجة والكبش والذئب في حالة المتنكر، باكتساب خصائصها من وداعة وافتراس، كذلك كثيرًا ما تنكّر أبو زيد في زي النساء، من غوازٍ ودلالات وقابلات ومومسات، خاصة حين تحايل برفقة الجازية وبقية عذارى بني هلال على بواب تونس؛ ليسمح لهن بالدخول، وطوره النسائي وأغانيه الأنثوية؛ لاكتساب موافقة صاحب الباب أو القفل الذي كان قد شدّد عليه الزناتي خليفة بعدم فتح بوابات تونس.

الريادة

تُعد سيرة بني هلال، وتغريبهم، ورحيلهم إلى بلاد الغرب — المغرب العربي — وحروبهم مع الزناتي خليفة، وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة، بحسب وصف الطبقات المتعاقبة على نصوصها، مدونةً كانت أو شفاهيةً، أهمَّ أنموذج واضح لسير الأنساب القبائلية، أو لذلك التحالف العشائري الذي لم يقتصر بحال على عرب الجزيرة، بقسميها الشمالي القيسي، في نجد والحجاز، وجنوبها القحطاني في عدن وحضرموت والجنوب اليمني العربي بعامة. فالسيرة ذاتها لا تغفل هذا الدور في التأريخ لرعوس وممثلي وشخص ذلك التحالف، منذ الإلهة الأنثى القمرية «شمة» وسليلتها الجازية أو الغازية، وأخيها رأس التحالف المعدي القيسي، حسن بن سرحان سلطان الهلالية، وأبنائه، يونس ومرعي، ويحيى، وفارس بني هلال أبو زيد الهلالي سلامة.

ثم عرب الجنوب اليمنيين وفارسهم هنا دياب بن غنم، الذي تعارف عليه جماهير السيرة بالزغبى، مرورًا بمن اجتذبتهم الهجرة الجماعية الزاحفة لتلك القبائل المتحالفة عبر التغريبة تحت شارة أو شعار الهلال، أحد أطوار الدورة القمرية، وما يستتبعها من أخذ بالتقويم القمري أو العربي (الهجري) وليس الشمس، إلى أيامنا.

فلقد اجتذب عرب الجزيرة عبر زحفهم من أقصى المشرق العربي، بدءًا بالخليج العربي إلى مغربه على طول الشمال الإفريقي حتى المحيط ومداخل أوروبا الجنوبية بعامة، الكثير من التحالفات القبائلية من العراق وما بين النهرين والشام ولبنان

وفلسطين ومصر، إما بالانضمام للحرب أو بالتضامن الذي يحققه — الزواج — والزواج السياسي كما سيتضح.

فمنذ الأحداث المبكرة للريادة التي اضطلع بها أبو زيد الهلالي حين حدث جوع في الأرض؛ بسبب انقطاع المطر في نجد ومعظم بوادي الجزيرة العربية، فاصطحب أبو زيد الهلالي ابني السلطان الهلالي حسن بن سرحان، يونس ومرعي؛ لريادة الطريق تمهيداً للهجرة الجماعية إلى تونس الخضراء، وتملكها بتخوتها السبع وقلعها الأربع عشرة حتى الأندلس.

فنجد الأمراء الهلالية المقنعين على هيئة شعراء جوالين حجازية، ينزلون مضارب الخفاجي عامر حاكم بلاد العراق، الذي سيرافق الهجرة الجماعية بفيالقه المحاربة أيضاً، حتى إذا ما نزلوا حلب ثم حماة وحمص وطرابلس حتى دمشق، اجتذبوا قبائل خليفة تمد يد العون لجحافل الجيوش العربية المتحالفة تحت شارة الهلال، الذي سيصبح رمزاً موحداً للعالم الإسلامي فيما بعد.

واتخذ الرواد الهلالية الثلاثة طريقهم إلى غزة وحاكمها السركسي المسمى بابن نازب، ومنها إلى مصر «العدية» وأكرمهم حاكمها «الفرمند بن بامنوج»، بل هو رافقهم بفرسانه حتى تخوم الديار الليبية، حتى إذا ما حطوا رحالهم بتونس، احتالوا حتى دخلوها عبر أسوارها الشهيرة ومدحوا الزناتي خليفة، فأحسن إليهم، ثم باعوا جارية هلالية تدعى «مي» إلى سعدى ابنة الزناتي خليفة حاكم تونس.^١

إلى أن اكتشف أمرهم «العلام» ابن عم الزناتي خليفة «ونائبه في معاملات الأحكام»، فاحتال بدوره للقبض عليهم ومواجهتهم بأنهم أمراء وبصاص بني هلال المتسللين أو الجواسيس.

وبعد مفاوضات طويلة شارك فيها الزناتي خليفة ذاته انتهى الأمر بتدخل الأميرة سعدى ابنته التي هددت أباهما بأن هؤلاء الأغراب لا يستحقون القتل، وإلا أدان مثل هذا الفعل القبيح لإذلال الغرباء وأسرهم أو قتلهم، بدلاً من إكرامهم والترحيب بهم في تونس، خاصةً وهم شعراء جوالون بما يساعد على إشاعة خبر اغتيال الزناتي لهم؛ ليصبح مسبة في الأفواه.

^١ التغريبة ص ١٧، المصدر السابق.

ثم أشارت سعدى، أو سعدى، بحبس الشابين في قصرها المنعزل بالسجن الملحق به وإطلاق سراح العبد أبي زيد ليعود بالإثبات والفداء:

يقول أبو سعدى الزناتي خليفة فعقلي تراه قد غدا محتار
أتوني جواسيس من الشرق عا جلًا إمارة أفاضل من فروع كبار

وحينما اقتنع الزناتي خليفة على مضض برأي سعدى ابنته أمر وزيره العلام بإطلاق سراح أبي زيد ليعود بالفدية، أما سعدى فأودعت الأمراء الأسرى سجنها. «وحين انطلق أبو زيد الهلالي واصل من فوره استطلاع له للمدائن حتى أشرف إلى وادي الغباين وتلك الأماكن، فوجدها كثيرة المياه والنبات متسعة البراري والفلوات، تصلح للحرب والقتال ومرعى النوق والجمال، ثم صار من هناك إلى قابس ومنها إلى دروس فوجدها أحسن محل لامتلاك تونس، وقد تعجب من خيرات البلاد وكثرة ما فيها من الإيراد ومشاهدة من البلدان الكثيرة والمياه والبساتين الغزيرة، فانشرح خاطره وطابت سرائره.»

ويتضح من ظاهرة اهتمام أبي زيد الهلالي برصد كل ما تقع عليه عيناه من معالم وجغرافية الأراضي التونسية، مدى إخصابها وخيراتها المتفجرة، بالإضافة إلى معالمها الواقعية وحصونها في قابس ودوس بما يسهل على قومه طريق الهجرة وسهولة فتحها. «أما يحيى ومرعي فأخذتهم سعدى عندها ويبقوا في سرور وأفراح وبسط وانشراح، أما الأمير أبو زيد فبعد أن دار جميع البلاد وعرف السهول والوهاد، رجع ليرى أحوال البلاد، ولما دخل قصر سعدى فألقاه مطلبًا بالرصاص.»

وعلى هذا النحو دأب فارس الهلالية على معرفة كل ما يسهل على عشائره طريق هجرتهم وفتوحاتهم، بل إن الأحداث التي صادفت فرسان بني هلال جاءت هي بذاتها بالمبرر لهجرة القبائل وحربتها لاسترداد أسرارها من الأمراء الرهائن بقصر سعدى الجميلة ابنة الزناتي خليفة، وغرامها الذي سيشتعل حبًا بمرعى عدو بلادها الذي جاء غزياً.

فتحرص السيرة على ترصد أبي زيد الهلالي لكل ما يشاهده ويراه من معالم ومراكز قوة، تسهل على التحالف القبلي الهلالي سهولة فتحها وتملكها.

وما زال يجّد في السير مدة خمسين يومًا حتى أقبل إلى نجد وتلك الأوطان، وحين دخوله إلى نجع بني هلال التقاه الكبار والصغار، وكلما تقدم إلى قدام يزاحمه الجميع وهم يصرخون بصوت واحد: «اليوم قد أتانا من هو عزنا وحمانا»، وما زال سائر حتى

أقبل إلى صيوان الأمير حسن والأمير دياب والقاضي بدير والأمير زيدان شيخ الشباب، تقدموا إليه وقبّلوه بين عينيه، وأجلسه الأمير حسن بجانبه، ودارت البشائر في بلاد نجد بأن الأمير أبا زيد حضر من بلاد الغرب، فاجتمعت الفرسان من كل مكان وحينئذ سألوه عن الأمراء مرعي ويحيى ويونس، فعند ذلك بكى الأمير بكاءً شديداً، وأشاد يخبرهم عما جرى له من التعب والمعاناة حاكياً مرة ومنشداً أخرى.

إلى أن استقر رأي كبار العشائر على الرحيل والهجرة عن الديار، إلى تونس والمغرب، لفك أسرى أمراء بني هلال.

فاجتمعت القبائل مع مطلع نهار الرحيل يتقدمها شيوخ القبائل وفرسانها، السلطان حسن بن سرحان، وأبو زيد الهلالي ودياب بن غانم والقاضي بدير، وزيدان شيخ الشباب، ثم الأميرة الجازية، التي هي في موقع الكاهنة — القمرية — الأم لهذا التحالف القبائلي الهلالي.

وتصادفهم سلسلة من الحروب والمنازعات أول ما يلتقون في بلاد الأعاجم بالعراق وتخوم إيران وبلاد التركمان، مثلما حدث مع الدبيس بن مريد، ووزيره المدعو همام، عقب سبي إحدى أميرات بني هلال وهي المارية ابنة القاضي.

وفي تلك الحروب تبدت شجاعة وفروسية رأس التحالف اليمني السيرة وهواجسها التي اشتعلت، فأنشدت تمنع أبيها عن منازل الدبيس دياب بن غانم الملقب بأبي موسى، وابنته وطفاء، أو وطفاء، بحسب نطق متوجسة كمثّل كاهنة متنبئة:

قد شفت بحر من دم	وأنت بوسطه غرقان
شفتك في وسطه تسبح	كلت منك الدرعان
ما عاد لك قوة تخرج	أنا شفتك بعيان
أنت تنادي يا أبو زيد	هيا يا أبا شيبان
في سرعة قد أتاك	ومد إليك الزندان
وقال لك يا أبو موسى	أمسكني بالدرعان

وتشير هذه السيرة التي توغل في إغراقها في المأثورات الغيبية والخرافية، من ضرب للرمل واستثارة وأحلام وهواجس أبطالها، خاصة الجازية، إلا أن كابوس وطفاء ابنة دياب تحقق هذه المرة بانكسار فرسان الهلالية أمام الدبيس الذي أسر منهم الكثيرين من قادتهم وأمرائهم، منهم الأمير عقيل أخو أبي زيد الهلالي والأمير زيدان الملقب بشيخ

الشباب إلى أن جاء المنقذ، وهو أبو زيد الهلالي وأحاييله الكاشفة عن مدى ذكائه وقدراته الفائقة في اجتياز المآزق وتحقيق غاياته في النصر على أعدائه.

«فما إن أسرَ الملك الديببس أمراء بني هلال، حتى هاجت النساء والرجال واستعظموا تلك الأحوال، وذهب منهم جماعة من الأعيان إلى عند أبي زيد فارس الفرسان، فوقعوا عليه وفوضوا إليه، وطلبوا منه أن يسعى لتخليص الفرسان والأبطال من الأسر.»

«إنه غيّرَ زيه وتنكر ولبس حلة من الحرير الأخضر ووضّع طيلساناً على رأسه حتى لم يعد يعرفه أحد، وقصد الملك الديببس وحادثه باللغة الفارسية، فلما رآه الديببس تلك الصفة ظن بأنه من دراويش الأعجام، فاحترمه وقال له: من أين أتيت يا ابن الأجواد؟ قال: من مدينة بغداد وإني من فقراء عبد القادر رب الفضائل والمآسر، فقال: ادعو لنا يا درويش الأعجام بالنجاح والانتصار، وأن الله يرزقنا بأبي زيد المخادع الماكر حتى نقتله على رءوس الأشهاد ونبلغ منه سرور الفؤاد، وهو الذي كان السبب في قدوم بني هلال إلى هذه المنازل والأطلال، فإذا أجاب الله طلبك بلّغناك إربك، فتعجب أبو زيد من هذا الكلام، وقال له: بلغك المراد، وما دام كذلك أريد منك أن تأمر لي بالذهاب إلى البلد. فسمح له بالذهاب وأمر الحجاب أن يفتحوا له الأبواب، وعند دخوله إلى البلد قصد باب الحديد وهو المكان الذي كانت مسجونة فيه فرسان بني هلال، ووجد هناك جماعة العبيد وهم يطوفون تحت جناح الظلام، فسلم عليهم، فردوا السلام، وقال: من تكون من الأنام؟ فقال: قد أرسلني الديببس بن مزيد لأدعو له في جامع عبد الصمد بأن الله يبلغه المراد وينتصر على أبي زيد من الأوغاد. وأنتم من تكونون من الناس؟ فقالوا: إننا من جملة الحراس، وقد أمر الملك أن نحافظ على أسر بني هلال خوفاً من أبي زيد؛ لئلا يأتي إليهم بالمكر والاحتتيال.

ثم إن أبا زيد بعد هذا الحديث أخرج من جيبه شمعة مبنجة، فأضاءها عند فرك مناخيرها، فلما اشتعلت فاح منها رائحة زكية، ولم تكن إلا برهة يسيرة حتى وقعت الحراس كالأموات من ذلك البنج، وبعد ذلك أخرج حجر المغناطيس ووضعه على الأقفال، فتساقطت في الحال، فرأى فرسان بني هلال في القيود والأغلال وهم يقاسون الأهوال، فأعلمهم بالأمر، وفكهم من الأسر، ثم أعطاهم أسلحة الجماعة، وقال لهم: اتبعوني بعد ساعة؛ حتى أكون فتحت لكم أبواب المدينة، فتخرجوا بالراحة والأمان.

ثم سار حتى وصلوا إلى الباب، فوجد الحراس جالسين في أيديهم السيوف والحراب، فردوا عليه السلام، وقاموا على الأقدام، وأجلسوه بجانبهم، وجعلوه يخاطبهم ويخاطبونه،

وكان كثيراً يمد يديه إلى جراب، ويأخذ قطعة من السكر ويأكلها أمامهم، فقالوا: ما هذا الذي تأكله يا شلبي؟ قال: هذا هو ملبس حلبي. فقالوا: أطعمنا ونحن ندعو لك بالتوفيق والخير. فأعطاهم قبضة كبيرة، وكانت مبنجة فأكلوها، فما استقرت في بطونهم حتى سقطوا أو ناموا، والأسرى فقد خرجوا ومدوا في قطع البراري والبطاح، فوصلوا لأهلهم عند الصباح، فقامت الأفراح، وكثر الصياح، واشتدت ظهور الأبطال وشكروا أبا زيد على تلك الأفعال، رأوا الحراس راكدين والأسرى غير موجودين، ولما بلغ الدببس هذا الخبر طار من عينيه الشرر وتأكد عنده بعد التحقيق والتفتيش أن البلا من الدراويش، وما هو إلا أبو زيد صاحب المكر والكيد، ودارت الدائرة واستمر القتال على المنوال حتى كثرت الأهوال على بني هلال، فلم يعد لهم ثبات فتأخروا إلى الوراء فتفرقوا إلى جانب الصحراء، وقد قُتل من الفريقين في ذلك نحو عشرين ألف بطل كرار، ولما أظلم الظلام اجتمعت بنو هلال في الخيام في حالة الذل والانكسار مما أصابهم، وعقدوا ديوان مع الأمير حسن، وطلبوا منه أن يمدهم برأيه، فأخذ حسن يحمسهم بالمقال ويشجعهم على الحرب والقتال، ويقول لهم: إنه من الواجب أن تركب الجازية مع العمارية وتحمل عليهم في الصباح بالكتائب والمواكب.»

وعلى هذا النحو الذي تسوقه السيرة في الدور الحربي والمقاتل والمنقذ للجازية، كإلهة قمرية أم لذلك التحالف الهلالي فهي بالحق التي حققت الانتصار الأخير وفك أسرى الهلالية، حتى إذا ما وصلت القبائل زحفها في أرض العجم — أو العراق الأعلى وبحر العرب^٢ — حتى طالبهم ملكها المدعو بالخرمند بدفع الجزية (عشر ما لهم من النساء والدواب والخيول).

فأرسل إليه أبو زيد الهلالي منشداً:

بعثت يا خرمند تطلب لعشرنا	عشر النساء والخيول الأصايل
وتريد منا كل بيضة جميلة	بنت الإمارة زائدات الدلائل
فما تحظى بهم فإن وراءهم	رجال حروب كالأسود تقاتل
سألقاكم غداً بقوة ساعدي	وجيش بني هلال الفضائل

^٢ دول الإمارات العربية اليوم.

وإن كنتم لا تبرزوا للقتال فإنني سألقاكم بوسط المنازل
يقول أبو زيد الهلالي سلامة سيدركوني الفرسان في يوم الهوايل

وحين وقعت الحرب بين الخرمند أو الفرمند — ويبدو أنه كان لقبًا ملكيًا — تبدت
شجاعة أبي زيد، وما ألحقه بهم من هزائم.

«فعند ذلك ولت الأعجام هاربةً إلى النجاة طالبة، وخلَّص أبو زيد من أيديهم النساء
والبنات ورجع بالنصر والإقبال إلى المضارب والأبيات مع باقي الأمراء والسادات.»
«هذا ما كان من أبي زيد البطل وما فعله في ذلك النهار، وأما المارية ابنة عم
الأمير غنيم فكانت في هودج على جمل أهوج، فما اشتد القتال انهزَّ بها الجمل وسار بها
على عجل، فرأت نفسها بقرب الحلة والكوفة والصلصيل وراء هودجها طالب أخذها،
فصاحت على ابن عمها من ملو رأسها، وكان المذكور بالقرب منها، فلما سمع نداها ترك
القتال وأتاها فجعل يطعن الأبطال ويمدد الفرسان.»

وابن عمها هنا ليس سوى أبي زيد الذي أنقذ أميرات بني هلال من أيدي العجم
بقرب الحلة والكوفة.

سعدى ومرعى

أين عزيزة ويونس؟

بحسب سرد السيرة فإن سعدى ابنة الزناتي خليفة تولت أمر الأمراء الأسرى الثلاثة يونس ومرعى ويحيى، وذلك عقب إقناعها لأبيها الزناتي، بإيداعهم السجن الملحق بقصرها الرائع المطلي بالرصاص، وكانت سعدى قد سرت وانجذبت منذ البداية بحديث أبي زيد وذكائه الخارق ومشاعره الإنسانية، حين أخذتهم وقدمت لهم فاخر الطعام فأخذه أبو زيد شاكرًا وقام بتقسيمه على سبعة أقسام، فسألته عن سبب ذلك، فقال لها: «اعلمي يا زينة الممالك وبدر الليل الحالك أنا وجماعتي أربعة وأنت والجارية اثنان على التمام، والحصة السابعة سأحزمها بحزام، وأرسلها إلى ابنة عمي^١ عاليا في الظلام.» وكان أبو زيد يقول هذا الكلام وهو متوقف عن أكل الطعام، فقالت له سعدى: «لماذا لا تتغذى؟» فتنهد وأنشد:

فأوعى خالي يضرب الصفائح	إذا أكلت أنا وجاعت جماعتي
أحمد ربي وهو كريم مسامح	إذا جعت أنا وأكلت جماعتي
ويكفي أربعة يا ست والكل راجح	أيا ست زاد اثنين يكفي ثلاثة
ويكفي لسته من هلال السمائح	ويكفي خمسة من أجاويد حينا

^١ يقصد العالية بنت جابر حبيبة أبي زيد ثم زوجته.

فضحكت سعدى وأعجبها شعره، ثم إنه بعد ذلك أخرجتهم من الحبس وأحضرتهم إلى عندها، وقدمت لهم الطعام، وأخذت تحادثهم وتسالهم عن أحوالهم وعن بلادهم، فقال أبو زيد: «نحن من جملة الشعراء نقصد الملوك والأمراء فنمدحهم بنفائس الأشعار، ونرجع إلى الديار بالدرهم والدينار.» فقالت: «إنكم لم تعلموني الحقيقة مع أنني عارفة بأحوالكم على التحقيق.» فأخذت تُعلمهم بسفرهم، وما جرى لهم في الطريق والسبب في قدومهم إلى تلك الديار بهذه القصيدة التي تستحق الاعتبار:

بدمع جرى فوق الخدود غزار
ومرة بعدها ما شفت الحرف جهار
وعرفت أساميكم بلا إنكار
حسن بن سرحان أمير جهار
وأنت أبو زيد فارس الأقطار
فجيتم لتونس لتكشفوا الأخبار
ترود بلاد القيروان عمار
أريد ثلاثة من فروع كبار
أمارة أصايل من فروع كبار
أسود كواسر طالبين قفار
فإني أقتفي منكم الآثار
وردتم حماة وحمص بوسط نهار
وجئتم إلى القدس الشريف جهار
وبلبيس جزئوها بلا إنكار
مررت على نيل الصعيد مرار
فرش لكم بيت للضيافة ودار
وعشر الليالي كاملة بنهار
من الشرق في جمع غزار

قالت سعدى بنت أمير تونس يونس
ضربت تحت الرمل عشرين مرة
فعرفتكم وعرفت اسم أميركم
إن مسير القوم أمير عامر
وهذا مرعي وذاك يونس ويحيى
قحلت أراضيكم وقد قل خيرها
فقالوا يا أبو زيد نرضاك رائد
فقلت لهم سمعًا وألفين طاعة
أريد الفتى مرعي ويحيى ويونس
فجاءوا ثلاثتهم إليك كأنهم
فمن يوم فارقتم نجد وأرضها
وجزتم حلب ليلاً في حال سرعة
وجئتم بلاد الشام جزتم بلادها
مررتم على غزة وقطة وغيرها
وجئتم إلى مصر ويعقوب يوسف
مررتم على الماضي^٢ فحيا ركايبكم
لكم ميت قافلة سايرين بعجلة
ولا بد من تأتي هلال بن عامر

^٢ حاكم مصر.

بأربع تسعينات ألوف عديدهم
بحرف الألف تأليف عدتكم
والباء بدت سيل ابن سرحان ابن علي
والتاء ترى في محل نجد وأرضها
والجيم جيتوا ترودوا بلادنا
والجيم جيرتم غرامي بحبكم
والحاء خليناك ترجع وتتنبى
والدال دل الرمل عندي بأن لي
والذال ذو الرمل نملك بلادنا
والراء رؤيكم تجوا يا سلامة
والزاء زلزلت البلاد بأهلها
والسين سرتم من بلاد بعيدة
والشين شديتو المطايا لأرضنا
والصاد صدتكم على خبر خاطو
والضاد ضربتم في جموع زناتي
الطاء طفتوا الأراضي ردتهم بلادنا
والظاء وظني أنكم تملكونا
والعين عيني نحو مرعي تطلعت
والغين غلب نجعنا من قبالك
والفاء فارقتم لنجد وأهلها
والقاف قابلتم كل معنى كلامكم
واللام لميتم رجال لحينا
والميم مال الحب في قلب مرعي
والنون نلقاكم على خيل سمر
والهاء همل دمع أصابني
والواو ولت خيلنا من رجالكم
والياء يبقى علمكم فوق علمنا
وحق الله ما أخون عهدكم

كذا دل الرمل بالأخبار
أربع تسعينات ألوف راكبين مهار
نهجن تلا فيها قطار قطار
سبعة سنين كاملات عسار
وتأخذ لقومك صحة الأخبار
وحبي لمرعي قد كواني بنار
تجيب لنا مال وما تختار
بأن بلاد القيروان دنار
وتحلونا من أرضنا وثمار
على أصايل تقطع الأقفار
وكل أمير يخجل الأقمار
قطعتوا الفضا وتسير الأوفار
وكم دار قطعتوها بع ب نهار
لأعدتم بقاع السجن بأشعار
وأبي من فعالكم عاد محتار
وأبصرتم البلدان وكل ديار
وقول وظني وهو صحيح جبار
فأشعل في قلبي لهيب النار
ونجم أبي واقف عليه غبار
وجئتم إلينا لتكشفوا الأخبار
وقلتم معاني أطيب الأشعار
وجئتم إلينا لتسكوا الأقطار
ولولا مرعي ما نظمت أشعار
وكل رديني أسمى خطر
على شأن مرعي انكويت بنار
وتبقى تونس والرجال قفار
بإذن الله الواحد القهار
ولو قطعوني بالسيوف بنار

فلما فرغت سعدى من كلامها شكرها الأمير أبو زيد وجماعته على اهتمامها بهم، وباتوا تلك الليلة، ولما أصبح الصباح أمر الزناتي بإحضارهم، فلما حضر وقال لأبي زيد: «إذا أطلقناك إلى أن تأتي جماعتك من الأوطان، فكم يوم تغيب عنا؟ وماذا تجيب لنا؟» فقال: «أغيب ثلاثة شهور، وأجيب لك أربع مئة ألف مدرع مشهور». فقال: «وما هو مرادك من المدرع أيها البطل الصميدع؟» فأخرج الأمير أبو زيد من جيبه قطعة من الفضة الخالص وأنقى من الفضة الروابض، وقال: «هذا هو المدرع يا زينة المتالك». ففرح الزناتي بذلك، وقال: «اذهب بأمان الأوطان». فقال: «أعطني عدة حرب وحصان؛ لأن الطريق مخاطرة والأراضي موعرة». فأشار الزناتي مستجيباً إلى طلب أبي زيد وأطلقه، استجابةً لمشورة سعدى ابنته.

وفي معظم النصوص الفولكلورية — الشفهية — تأخذ عزيزة ابنة سلطان أو باي تونس العجوز معبد، دور سعدى في الطبقات الشعبية المتداولة لسيرة وتغريبة وريادة بني هلال.

بل إن من الملفت أن البالادا الشعبية أو قصص الحب والحرب الشعرية، تحفظ لعزيزة ويونس، ذات الدور المناط لسعدى ومرعي، وكما أشرنا سابقاً بالمتداول أو المتواتر إلى أيامنا، هي بالادا عزيزة ويونس، والتي اشتهرت بالسفاري عزيزة، وكانت إحدى المواضيع الثابتة داخل مسرحيات خيال الظل، وصندوق الدنيا. بينما لم تستقل فابيولة أو قصة سعدى ومرعي، عن جسد السيرة لتصبح قصة أو حكاية شعرية غنائية بالقدر الملاحظ بالنسبة لعزيزة ويونس.

الخفاجي عامر العراقي

وواصلت الهجرة الهلالية زحفها إلى أن شارفوا بلاد التركمان، وحاكمها هو الملك
الغطريق الملقب بالغضبان الذي طالبهم كالعادة بعشر نسائهم، ودفع الجزية مهدداً،
فرد عليه أبو زيد منشداً:

ويقول أبو زيد الهلالي سلامة	ونيران قلبي زايدات وقيد
يا غادياً مني على متن ضامر	تقطع فيافي برها وتعيد
إذا جيت إلى الغضبان بلغ سلامي	إللي خاطبتنا بالغیظ والتهديد
طالب بنات مكحلات نواعس	بنات الإمارة مثل ورد اللبيد
أما كنت تعلم يا خميس وراءهم	أسود قروم هلال وكل حسيد
وراءهم حسن أمير قيس	حامي الزناتي من كل قوم عنيد
وراءهم أبو لكسايدير بن فايد	على متن ضامر مثل نار وقيد
وراءهم أبو موسى دياب بن غانم	على ظهر خطر الغزال تصيد
وراءهم أبو ضرغام شيخ شبابنا	سته آلاف قومه وتزيد
أنا أبو زيد الهلالي سلامة	لخلي الفوارس على التراب مديد
وأفني أكابرکم وكل رجالکم	وأجعل دماکم على التراب تزيد

وفي هذه الحرب التي حسمها فارس الخضرا دياب بن غانم بقتله للغضبان، وفتح
بلاده «وولى بنو هلال ابنه» بدلاً منه، على أن يدفع لهم الجزية، وواصلوا زحفهم إلى

أن نزلوا العراق، وعرف حاكمها واشتهر بالكثير من الفضائل والفروسية والمآثر يقال له الخفاجي عامر — يحكم على البصرة وبغداد والموصل والعراق وما يلي تلك البلاد — عنده من الأبطال والفرسان نحو مائتي ألف عنان، فبينما هو جالس في الديوان وحوله الوزراء والأعيان، إذ قد دخلت عليه الرعيان، وقالوا له: «اعلم يا ملك الزمان أن بني هلال قد دخلت ديارنا وأكلت من ثمار بساتيننا وأشجاره، وهم كالجراد المنتشر لم يعرف لهم أول من آخر وقد هربت من أمامهم الرعيان.»

إلا أن رأس التحالف الهلالي السلطان حسن بن سرحان عرف كيف يخاطب الخفاجي عامر ويخبره بغرضهم، وهو مجرد المرور عبر بلاده في طريقهم إلى المغرب العربي، وهو يكتب له منشداً ومحياً جوده وسخاءه ومعشره الطيب قائلاً:

ونحن يا أمير لنا بالغرب سادة	بأرض الزناتي يا ملك بالجنازر
وجينا جميعاً يا أمير لأجلهم	لكي نخلصهم بضرب البواتر
ونحن ضيوفك يا خفاجي اهتدى	بجاه النبي فخر الورى والعشاير
فدعنا نثني الخير بدارنا	حتى نصل للغرب وأرض الجزائر
يا أمير نحن تحت حكمك وطاعتك	فافعل بأصلك يا خفاجي عامر

«قال الراوي: فلما فرغ الأمير حسن من هذا الشعر والنظام طواه، وأعطاه إلى الوزير سلام، فأخذه وسار حتى أشرف على الخفاجي عامر في آخر النهار، فأعطاه الكتاب ففتحه وقرأه وعرف فحواه، وقال له أبوه درغام: جواب بني هلال أحلى من الماء الزلال، فقم اعزمهم ورحب بهم، فقام الخفاجي عامر الملقب بالنجع بالترحيب بهم.»

«فانشرح خاطر الخفاجي عامر وتقدم بعده الأمير درغام، وأشار بترحيب بنو هلال، ثم ركب بنو هلال مطاياهم والخفاجي عامر ودخلوا للبلد، وتفرقت عرب بني هلال في تلك الأراضي، وأما الأمير حسن والسادات، فبقوا عند الخفاجي عامر على أمل طعام وشرب مدام وفرح وسرور مدة ثلاثة شهور.»

«فاتفق في بعض الأيام أن الخفاجي أولم وليمة عظيمة دعى إليها الأمير حسن وسادات بنو هلال الأكابر حضرتها النساء والبنات، وبعد أن أكلوا ولذوا ودارت كاسات المدام على من حضر في ذلك المقام، وكانت البنات والنساء الحرار يشربن على اسم

الخفاجي، إلى أن انتهت النوبة على الجازية، وكانت بديعة الجمال فصيحة المقال، تقدمت إلى الخفاجي تصف له محاسن بني هلال، فأشارت:

تقول فتاة الحي الجازية	ونيران قلبي زایدات إشعال
إن الأمانة يا أمير لبناتهم	من الظبا والحسن والأشكال
أما جمال الطعن بنت سلامة	الوجه منها مثل بدر تمام
بنت أبو موسى دياب الماجد	فعيونها يا أمير كعين غزال
بنت قاضينا بدير الفايد	تشبه غزالاً بالفلاة جفال
بنت أمير البوادي أبي علي	شبيهة البدر في بهاء وجمال»

«وأكلت قوم الخفاجي وهلال من موائد الطعام، وأمر حسن بالرحيل بعد ثلاثة أيام، فقال الخفاجي: لا بد من مسيري معكم إلى تونس، وأبذل معكم المجهود في استخلاص مرعي ويحيى ويونس. فلما سمع أبوه الضرغام منه هذا الكلام لم يهن عليه الأمر، وقد اشتعل قلبه بلهيب الجمر؛ لأنه كان يحبه محبة زائدة وليس له صبر على فراقه، فلم يقبل الخفاجي وطلب من ابنته وزوجته أن يذهبا معاً في تلك الديار، ويتركا الحي، فامتنعا عن المسير وبكيا بدمع غزير ثم تقدمت ابنته ذوابة، وأشارت تنهيه عن السفر، وتقول:

تقول ذوابة يا أبي لا تسافر	فتترك الأهل في عنا ومصاعب
فما لك يا أمير في الغرب حاجة	ولا لك فيها مال ولا أسباب
ولا أثار عندك للزناتي خليفة	ولا دم لك ولا أصحاب
فكيف تشتتنا وتطلب بعادنا	وتبقى ضواحي في عنا وحساب
وتبقى الهلاليين مجموع شملهم	ونحن بلا أهل ولا أصحاب

فلما فرغت ابنته من كلامها زاد البكاء والنحيب من الفراق:

تقول فتاة الحي هي التي شكت	ولي قلب من كثر الغباين داب
روحك ألا يا أمير ما فيه فايده	وقصدك بلاد الغرب ليس صواب

سيرة بني هلال

فدع أبو زيد الهلالي سلامة وحسن الهلالي والأمير دياب
فكيف تخلي يا أمير بلادك وتبقى قصورك خاليات خراب؟»

وبعد ذلك حضرت جميع الولاة وسادات العشائر لوداع الخليفة عامر.
وبعد ثلاثة أيام أمر الأمير حسن بدق طبل الرحيل والاستعداد للسفر من تلك البلاد،
فعند ذلك مدت المضارب، وركبت الفرسان ظهور الجنائب واعتقلوا بالسيوف والنصول،
وقد ملئوا بكثرتهم تلك السلول، وركبت النساء والبناات في الهودج قاصدين بلاد الغرب.

أسر دياب في قبرص

ثم ترد بعد ذلك أخبار حروب طويلة، معظمها من ذلك النوع الدخيل على جسد السيرة، وهو ما أشرنا إليه بالتراكم الملحمي أو ما يضيفه رواة العصور المتعاقبة، من ذلك سلسلة حروب ومنازعات انتقامية من جانب حاكم الموصل الذي استعان بالتيغور لنك، وأحد وزرائه المتآمرين يُدعى «الإسكندر».

وكان لدياب بن غانم الباع الأكبر في تحقيق الانتصار على ما تسميهم السيرة بالأعاجم: «إني دياب الخيل ذباح الفوارس»^١ كذلك تصفه السيرة، أنه عقب كل انتصار، كان يعود مضرجًا بالدم مثل شقيقه الأرجوان منشدًا:

مقاتلات الفتى الزغبى دياب ولي عزم كما الصخر الأصما
ولي همة كهمة ليث غاب أنا الزغبى دياب المسمى

كذلك تبدت بطولات دياب عقب وصولهم إلى حلب الشهباء وقتله لحاكمها بدريس ملك حلب، فاستقبل أهلها الهلالية بالترحاب، وبعد أن نصَّب الهلالية ابن الملك المقتول، واسمه جمال، ملكًا عليها مكان أبيه الشرير.

«فأمر أهل المدينة أن تطيع أوامره، وأقامت بنو هلال في تلك الأطلال نحو عشرة أيام في أكل وطعام وشرب مدام، وسماع أصوات الأنام، وفي اليوم الحادي عشر تجهزت

للرحيل والمفر قد دق طبل الرجوع تنبيهاً للعسكر، وفي الحال هُدت الخيام وركبت فرسان الصدام، وسارت النساء والبنات في الهودج العماريات، وركب أيضاً الأمير حسن وباقي السادات ورفعت على رؤوسهم الأعلام وجدوا في قطع البراري، وما زالوا يقطعون الروابي والآكام مدة ستة أيام حتى وصلوا إلى مدينة حماة، فنزلوا على نهر العاصي، ولم يعترضهم أحد؛ لأن أهل البلد كان قد بلغهم ما جرى على أهل حلب، فخافوا عواقب الأمر وإثارة الفتن فاستقبلهم الملك بالإكرام والوقار.»

«قال الراوي: ومن الأمور الغريبة والحوادث العجيبة، وهو أنه كان بمدينة حلب تاجر اسمه كساب، وكان من أشهر الناس ومن أتباع صاحب جزيرة قبرص الملك الهراس قد حضر إلى تلك المدينة، وكان يتاجر بالبضائع، فاتفق أنه لما قدمت بنو هلال إلى تلك الديار ونهبت أمواله، فشكى للأمير دياب وأعلمه وطلب رد أمواله التي كسبها بنو هلال، فلم يستفد وإلا حصل على حين ترك حلب ونجا بنفسه خوفاً وقصد الملك الهراس، فدخل عليه وأعلمه بما فعلت بنو هلال به، فاغتاظ الملك؛ لأنه كان يحب كساب، فأوعده بإحضار دياب، وكان عنده ثلاثة من أصحاب حيل وخداع، وكانوا من جملة محافظين المدينة فأحضرهم وأعلمهم بواقعة الحال، وقيد الأموال وطلب منهم أن يسيروا مع كساب ويأتوا بالأمير دياب، فقالوا: سمعاً وطاعة وغيروا ثيابهم وساروا بالموكب من تلك الساعة وصحبتهم هدايا، وعند وصولهم إلى اللاذقية نزلوا في المدينة، وجعلوا يتجسسون أخبار بني هلال، فعلموا أنهم في حماة الأطلال، فعند ذلك ركبوا وساروا تحت جناح الظلام إلى أن وصلوا إلى البلد ودخلوا منزل دياب وبصحبتهم الهدايا مثل سيف معقرب وخنجر كالفضة جوهر وأبريق فضة وثلاث مماليك يساوي ألف دينار، وغير ذلك من الأشياء الثمينة، فلما وصلوا دخلوا على الأمير دياب وقدموا الهدايا فترحب وسألهم عن حالهم، فقال له كبيرهم: إن سألت عنا يا أمير نحن تاجر وإخوة ثلاثة وجينا في تجرة عظيمة وتركناها في اللاذقية، خفنا من الطريق وحذرنا كل صديق ومرادنا تعدينا من هذا الطريق، وعند ذلك شالوا ثلاث منح من الجواهر المثنية التي تدهش الأبصار وتحير الأفكار وقالوا له هذه الأولى إلى الأمير حسن، والثانية إلى الأمير أبو زيد والثالثة إلى القاضي. فقال دياب: ومن هؤلاء الذين تقول عنهم وكأنهم من تحت يدي؟ فقالوا: نحن أتينا لعندك، الذي تريده أعطيه والذي ما تريده لا تعطيه. فقال لهم: نحن ما ندري لأحدمكم؛ لئلا يقوموا يلحقوا. قال كبيرهم: نحن تاجر ولا أحد يجلب متاجر مثلنا ومعنا مركب موثوق خلاف ما بعناه نحن كل سنة تلاقينا نبيع ونشتري، ونكسب

النصف في بضاعتنا ولا نحمي طريقنا إلا على حلب، وكان اللعين بدريس يشتري منا ما يلزم من البضائع كل سنة، وقد أتينا هذا المال على حسب عادتنا فلم نجده، وقد وجدناكم ناصبي على حلب، فسالنا بعض المسافرين، فأخبرونا عليك بأنك قتلتهم وملكت بلاده ففرحنا؛ لأن ذلك الملعون أخذ منا عشرة آلاف دينار، وهذا غير عشرة آلاف ثانية، فقلنا من شدة فرحنا: نقدم لك هذه البدلة حيث إنك قتلت هذا الملعون الخبيث..»

«فركبوا الثلاثة هجنهم وركب الأمير دياب أيضاً، وساروا خوفاً من أن ينظرهم أحد لئلا تظهر حيلتهم، وبينما هم سائرون وإذا بالأمر عمار أخي الأمير حسن التقى بهم فلم يعرف منهم سوى الأمير دياب، فقال: يا بن غانم! إلى أين ساير مع هؤلاء القوم؟ فأجابه: هؤلاء ضيوفي وموصلهم خوفاً عليهم من سفهاء العرب..»

«فسار الأمير عمار إلى منزله، وأما الأمير دياب فसार مع أصحابه من العشاء إلى ثاني يوم للظهر حتى أشرفوا على البحر المالح، فسمع دياب صوت دوي الماء مثل الطبل، فدخل عليه الوهم..»

«ولما رآه الثلاثة قد تغير، قالوا له: أما تنزل معنا في البحر؟ فأجابهم: إن نزولي معكم في البحر ما هو ضروري، وإن كان كلامكم صدق انزلوا وهاتوا ما قلتولي عليه، وأنا ما عدت أخطي ولا خطوة واحدة. ثم نزل عن الشهباء، ومسك سرجه بيده اليسار والسيف بيده اليمين، ووقف ينتظر فتركوه ونزلوا إلى البحر حتى أتى إلى الغليون، وجابوا له خيمة من الحرير الأصفر، وتلك الخيمة مكللة بالدرر والجواهر والياقوت والمرجان والزمرد الأخضر، فلما رأى دياب تلك الخيمة وفرشها الذي يدهش، تعجب وظن أن كلامهم صحيح، ودخل معهم إلى الخيمة ودخلوا يتحادثون وأتوا بالمأكل والمشرب، وفي الحال جابوا السلاسل قيدوه ونزلوا إلى المركب ورفعوا المراسي، وأقلعوا ولما قطعوا مسافة طويلة أعطوه ضد البنج، ففاق فلما نظر الجماعة كانوا في ملابس بيض يلاقيهم في برانيط سود، فعرف أن الحيلة تمت عليه، فتنهد وأنشد يقول:

يقول الزغبى دياب بن غانم	بكيث على حالى وأنا مأسور
بكيث على جاهي وعزي وهيبتي	وأنا فوق يختي جالساً مسرور
ومن بعد عزي وارتفاعي وشمختي	بقيت مقيد بينكم مأسور

ثم قالوا له: لا بد من قتلك. وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا جزيرة قبرص، وطلعوه مقيد وأدخلوه إلى عند الملك هراس، وكان عنده جماعة من الناس، ففرح الملك وألقاه تحت العذاب..»

«أما ما كان من بني هلال، فإنهم كانوا في مسرات إلا والخضرا قادمة مثل هبوب الرياح، وهي كئيبة حزينة على فقد خيالها الزغبى دياب، فأول ما نظرتها ابنته وطفاء، فصاحت وولولت، فتراكض جميع الفرسان على صاحبها، وفي تلك الساعة صار ضجة عظيمة..»
«وأما ما كان من الأمير حسن، فإنه قال لأبي زيد: إن دياب صار له مدة ما حضر لعندنا، وأظن أنه مغتاز علينا؛ لأننا ما خليناه ينهب حلب، فقال له أبو زيد: قم نزوره. ولما ساروا تحت منازل دياب سمعوا البكاء والنواح، وتقدم غانم أبو دياب وهو باكي العين، وأشار إلى الأمير أبي زيد بهذه الأبيات، يقول:

يقول الفتى غانم على ما جرى له	ودمعي جرى فوق الخدود سكيب
دياب يا عيني ويا نور ناظري	سقاها النيا كأس المنون عصيب
تفرق شملتي بعد ما كان مجتمعا	غدرني زمني والزمان عجيب
أتانا ضيوف قاصدين بلادنا	على ظهر خيل مثل ريح هبيب
فأضافهم ولدي وقام بجمعهم	يرحب فيهم غاية الترحيب
فقلبي يحدثني يقول لي	فما هم إلا من أهالي العيب
أبو زيد قدامك أبو زيد غانم	أبو زيد قدامك حزين كئيب
أبو زيد لك من المال جملة	ألفين سرية وألفين جنيب

فلما فرغ غانم من كلامه، وسمّع الحاضرين، حزنوا على فقد دياب إلى أن تصدى لإنقاذه أبو زيد الهلالي بعد أن ضرب الرمل، ورأى أهوال دياب وحاجته للنجدة، بعد أن عرف بمكان دياب، وأسره في جزيرة قبرص عند ملك يدعى الهراس..»

«وتجهز للسفر، فأخذ عشرة فرسان، وصار يقطع البراري، وما زال سائرا حتى وصل قبرص (!؟) إلى أن وصل إلى باب المدينة رأى الهراس خارج بجماعة إلى الصيد والقنص، فعرف أبو زيد أنه الملك، فتقدم إليه وسلم عليه بأفصح لسان، وسحب المبخرة، وحط بخور، فعقد الدخان، وقال له: هذا البخور من دير الحيران، وطلع ثلاث شمعات، وقال له: خذ هذه من دير البنات ودير الحميرة المباركات، فقال الهراس: وقعت يا أبا زيد،

وكيف خلصت وأنا مربوط عليك الطرق؟ فقال سلامة: لا تقول هذا الكلام يا ملك الزمان، أنا خدام الملك مثقال ولي مائتين عام سابع ما خلّيت دير ولا صومعة ولا مجلس، وإنك الثالث على دياب وأسرته؛ لأنه قتل بدريس. فقال الهراس: يا راهب! أما دياب فقد مسكناه في الحديد رميناه، ولكن بحياتي عليك أنت بعينيك مثقال. فقال أبو زيد: أيّ وحق الإله المتعال. فعندما أخبروه والهراس كيف عمل في دياب وسريعاً دخلوا إلى الديوان، وأمر أبو زيد بالجلوس، فجلس للطعام، فأكل ثم بدأ أبو زيد الملك حديثاً ما سمع مثله في طول عمره، حتى ولا من العلماء والفلاسفة، فسُر منه جداً، ونادى في أكابر ديوانه بأن يكون أبو زيد الكبير فيهم جميعاً، فتقدم كبير الرهبان، كان حاضر ضرب الرمل، فعرف أنه أبو زيد، فقال الجميع: هذا كبير إنه إذا تغلب يكون اتغلبنا، وكان يُسمى أو برناس، فتقدم لعند أبي زيد، يقول:

قال الراهب أبو برناس	اسمع قولِي يا قاضي
أنا لك ضد بهزلٍ وجد	وحق العهد وأبو شماس
دخلت المكر وبحر الفكر	وماء السكر وأم الناس
وما المكروه وما المحروم؟	وما المنصوص بغصن الآس؟
وما البننتين لهن بعليّن؟	وما الشخصين وما الرفاس؟
وما المحروم والمطروف؟	وما المعروف وما الجلاس؟
سؤالي جيب إن كنت لبيب	بلا تعجيب وما ملاسي

فأجاب أبو زيد:

رد سلامه يا جلوس	أنتم ملوك خيار الناس
كونوا شهوداً على الراهب	شهادة حق بغير أكاسي
وشوفوا السيد من الخادم	وابن اللاس وابن الناس
وأما المكروه وما المحروم	وما لقوا إبليس وخاسي
أما المفهوم جفاه النوم	وليس يروم بجفنه نعاس
أما البننتين فلهم بعليّن	بيد شيخين روي نحاس
أما المقروف إبليس يطوف	له شرشوف فتن الناس

وأما المحروف خليل الله	أما المطروف الخضر العباس
أما البرجوس لنا جاسوس	حاسد وتعوق خفيف الراس
أما الرادي نسيم الريح	أما الكادي عقرب الكاس
أما الشافي دئى النفس	من السكر نسيم الكاس
فهي حواء خلقت كالبدر	بوجه منير كالمقياس
آدم قام يريد لها	أتاه الوحي بلا قرطاس
سلامة قال نزكي الخاطر	شرحت سؤال أبو برناس

«فلما فرغ سلامة من كلامه، تعجبوا الحاضرين من فصاحة لسانه، فما بقى عند الهراس أكبر منه، وقال: تمنى علي ما تريد يا سلامة؟ قال له: أن تريني دياب حتى أشفي قلبي منه. فأمرهم بما قال، فعند ذلك قاموا في ساعته، وأخذوه والشمع قدماه أشعلوه، وساروا حتى وصلوا إلى السجن، فأدخلوه، ولما شاف دياب في هذا البلاء والعذاب كلَّ عن الصواب، وتقدم إلى عنده، ورفع يده، وضربه كف، طير الشرر من عينيه، فتألم دياب وصاح: الله يقطع يمينك. فقال له: وأنت الله يقطع عمرك من هذا السجن. وخرج من عنده، وتوجه إلى عند الهراس، وقال: يا ملك الزمان! هذا دياب ما بقى ينفع، قال الهراس: كيف يكون الرأي عندك، فقال: فكه من الحديد.»

«وعلى هذا النحو واصل أبو زيد احتيالاته إلى أن نجح في فك وثاق دياب، وتحريره من الأسر، ومعه اثنا عشر ألف أسير، استخدمهم في حصار سرايا حاكم قبرص الملك الهراس، وهو في ثياب الراهب سلامة، فقتل دياب الملك الهراس، ثم تفرقوا في الأسواق والأزقة، وحملوا السيف بمن لم يطق حتى قتلوا اثني عشر ألفاً، وباقي الناس طلبوا الأمان، ووضعوا المحارم في رقابهم، فغفوا عنهم، وطلع منادي في الأمان، وجلس أبو زيد في الديوان، وأتى عنده الأكابر.»

«والتفت أبو زيد إلى الحاضرين من أعيان البلدة، وقال لهم: قد وليت نوفل حاكم عليكم، ولا أحد منكم يخالف له أمره. ثم دخلوا دار الهراس، وجدوا المال الذي فيها لا يعد ولا يحصى، فأخذوه ووثقوه في المراكب، وسافروا بعد ثلاثة أيام بقدمهم، فقامت عندهم الفرحات، وعلات الصيحات، وزغرطت النساء والبنات، ودقت النوبات، وساروا حتى وصلوا، فلما وقعت العين ترجل الفريقين، وسلموا على بعضهم البعض سلام الأحباب، فهنؤهم بالسلامة، ثم حملوا الأحمال وساروا، وأما الأسارى ماشيين في عراضة قدام الأمير أبو زيد إلى أن وصلوا إلى الخيام، فقابلتهم النساء والبنات بالزغاريط والنوبات،

وهنوا الأمير دياب بخلاصه من الأسر، وشكروا أبو زيد، وعمل الأمير حسن في اليوم الثاني وليمة مدة عشرة أيام، وبعد ذلك صمموا على الارتحال، فهدت الخيام، وانتشرت الرايات والأعلام، وركبت السادات ظهور الخيول، واعتقلوا بالرماح والنصول، وركبت النساء والبنات في الهودج والعماريات، وجدوا في قطع البراري والفلوات طالبين أرض عيام،^٢ حتى وصلوا إليها بعد أيام، فنصبوا المضارب والخيام ورفعوا الأعلام.»

^٢ نرجح أنها تخوم فلسطين.

الهلاية يحاربون اليهود في فلسطين

ولعلني في هذا الباب أكثر من الاستشهاد بالنصوص الحرفية للسيرة كمستند متحقق لدى عبث النساخ اليهود — إن لم يكن الصهاينة — بالأصول النصية لهذه السيرة، وكيف أن كلمة صهيونية، حُرِّفَت كتابةً إلى «سهيونية» عبر السرد والوقائع التي حدثت في أرض تدعوها السيرة بأرض عيام، نرجح أنها تخوم فلسطين وقلاعها التي وصلوها عقب رحيلهم عن قبرص نزولاً إلى اللاذقية.

«إلى أن التقى بهم في تلك النواحي، عطار ذو هيبة ووقار، قدامه حماره عقب وصولهم إلى أرض يقال لها قلعة سواكن، وكيف استدرج أبطالهم بالحيلة والسحر.»^١ والملاحظ أن هذه القلعة هي بالفعل بالقرب من اللاذقية نزولاً إلى حماة، وقد زرتها بصحبة زوجتي شتاء عام ١٩٧٥، وما تزال النصوص الشفهية التي سمعتها من الأهالي تحفظ هذه الواقعة المتواترة المائلة عند أسر أبطال بني هلال بها، وكيف كانوا يمارسون رياضتهم الفروسية بالسباق ومنازلات «الرجاس» عبر سهولها.

وهي بالفعل قلعة رومانية الطراز موحشة. فما أن استدرج الكاهن اليهودي الأبطال، حتى حلت بهم النكبات التي استغرقت فصلاً كاملاً من فصول السيرة على النحو التالي:

ولما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، واجتمعت بنو هلال عند أبو زيد، وقالت: ما هذا المصاب؟ وما يكون من الجواب؟ قال لهم: «قوموا بنا في ساعة

الحال، ندور عليهم في البراري، ونفحص عن هذه الأحوال.» فبينما هم كذلك، وإذا برجل صابر في تلك الدكايل فساروا إليه، فسلموا عليه، فرد عليه السلام، فقال له أبو زيد: «يا أبا العرب، أنت من أين؟ وإلى أين قاصد؟» فقال له: «يا أمير، أنا كنت في صهيون، وسائر إلى بغداد، وتلك العيون.» فقال: «ما عندك من الأخبار؟» فقال: «اعلم بينما كنت أمس حائرًا في تلك الناحية، إذ وجدت أبا بشاره العطار، ومعه ثلاثة أماره وخيارهم من بني هلال، ولكن واقعين في أوشم الأضرار، وأخذهم إلى قلعة صهيون، ووضعهم في الحديد والأغلال، وهذا ما عندي من الأخبار، وإذا كنتم زاهبين إلى خلاصهم، ارجعوا واستجبروا بالله، لئلا يصير فيكم مثلهم؛ لأنه ما يقدر أن يصل إليهم.» فقال له أبو زيد: «من أي شيء؟» فقال له: «من أبو بشاره؛ لأنه سحار مكار لا يطلى له بنار، ولكن أنتم من أي بلاد؟» فقال له: «من بلاد الحسار والقطهف.» فلما سمع الساعي كلامهم تركهم، وسار إلى حال سبيله، وأما أبو زيد فإنه قال لفرسانه والأبطال: «ما يكون عندكم من الرأي والإرشاد؟» فقالوا: «الرأي عندك يا ابن الأمجاد.» فقال لهم: «ارجعوا إلى الأطلاع، وأنا وزيدان نكفي لهذه الأحوال.» فعندها رجعت العرب، وأما أبو زيد وزيدان ساروا في سلك البراري والقفار طالين قلعة صهيون في تلك الأوطان؛ إذ نظروا أبو بشاره العطار يدور في تلك البراري، وسابق قدامه الحمار، فلما نظرهم وقف حتى وصلوا إليه، وصاروا بين يديه، فصاح فيهم، وقال لهم: «ويلكم أيها الأندال، وقعت في أوشم الأحوال، وقعت يا أبو زيد أنت وزيدان، وتظنوا أن مكرهم يدخل عليّ، والله يا أبو زيد لا بد أقتلك وأريح الناس منك.» فقال له: «من عرفك بينما حتى تعادينا؟» فقال: «عارفكم من وقت ما خرجتم من أوطانكم.»

فلما نظر أبو بشاره من أبو زيد تلك الفعال، خاف من الوبال، فقبض كوشة من التراب، وعزَّم عليها ثم حدفها على أبو زيد، وإذا برجليه قد لبست في الأرض، وكذلك يده يابسات ومرفوعات إلى فوق رأسه، فعدم حواسه، ثم أنه أبو بشاره زعق في أبو زيد بصوت هائل، كأنه الرعد الصايل، ورفع في يده ما شاف نفسه إلا وهو طائر ما بين الأرض والسماء هو وزيدان.

وعبر سلسلة من الانتصارات السحرية، التي يحرزها اليهودي أبو بشارة ضد أبي زيد وبقيّة أبطال بني هلال عبر قلاع وأماكن خربة، لحين استعانة أبي زيد بالخضر أبي العباس، دون عون.

وكان أن لجأ إلى سلسلة حيله ومكائده، كما تصفه السيرة بدقة فائقة مع ملاحظة صراعه داخل قلعة «صهيون» تلك.

«ثم إنه أخذ حماره، ونزّل عنه بضاعته، ففردها ونظر ما فيها، وبعد ذلك حزمها، ووضعها على الحمار، وبقي في ذاته محتار، ثم أنه شلح ما كان عليه من الثياب بدون ارتياب، وتزيا بزي أبو بشارة العطار، وساق قدامه الحمار، وقال له: الله يحرق عظام صاحبك ابن الأوغاد. وسار في تلك البراري والوهاد، وسار على قلعة صهيون، وصاح أنا الحنون، ساقى الضد كاس المنون، ومعى فلفل وكمون وحنة وأساور وأبر وحلتي ودهان أحمر، وسيداك وخطوط لكم البضائع في هذه السفرة يا بنات. فتكاثرت عليه النساء من كل مكان، فصار يكبش ويعطي لهم بلاش من غير دنانير، ويقول لهم: هل من سفرة كسينا شيء كثير؟ فعادوا به بكل شفة لسان، فتركهم وسار في تلك البراري والكُسبان، ولم يزل أبو زيد ساير حتى وصل إلى قلعة صهيون وتلك المعالم، فما نظر إلى واحد، فنزل له واثب على الأقدام، والتقاءه بالترحيب والإكرام، وأجلسه بجانبه على مراتبه، وأمر له بالخمير والشراب، فقال أبو زيد في سره: أنا عمري ما شربته، وكيف أشرب الآن؟! وعاد بأمره محتار من هذا الضرر، فقال له صاحب القلعة، وكان اسمه حنا: علامك يا بشارة ما تشرب وتضرب؟ فقال له أبو زيد: ما لي حاجة حيث حلفت عنه يمين جمعة كاملة أنني لا أذوقه؛ لأن من خاطري قتل هؤلاء الأسارى، وأسقيهم كأس الذل والخساء. فقال له: ونحن عندنا ننظرك حتى أنك تحضر، وتفعل فيهم مرادك. فقال لهم أبو زيد: لأجل أن أسقيه كأس الهوان. فلما أحضروه نظر إليه إلى أن تمكن أبو زيد في النهاية من الانتصار على عدوه الصهيوني عقب سلسلة من المكائد والتحويلات السحرية، أنشد خلالها أبو زيد أبلغ الأشعار والمراثي الذاتية:

عتب على دهري وفي سهيوان^٢ أرمانى عند قوم بين القاصي والداني

^٢ لاحظ تحريف كلمة صهيون (أي سهيوان).

الدهر دولاب لا تأمن له بالك في أرض صهيون هذا اليوم أرمني
فخلى حمائي وحلى هل بضاعة حتى أروح سواح في آخر البلدان
وأعمل وليمة وأجمع فرسانك وأحط يدي عليهم وتم ذرعاني
وهذه المحابيس يوم العيد ندبهم وأجعل دماهم في الأرض طوفان
وأجيب أبو زيد وأعماله الماكر كي ينظر العذاب أشكال وألوان»

«وعن طريق تضمينه الاستعانة بالخمير للإفلات من أسر، تمكن أبو زيد من فك وثاق أبطال بني هلال من الأسر الصهيوني، وأخذهم في جنح الظلام، وساروا حتى وصلوا لقومهم، ففرحوا بهم فرحاً شديداً، وطلعوا لاقوهم بالطبول والزمور وشكروا الأمير أبو زيد.»

«وأما ما كان من أمر حنا والأبطال، فكانوا خمرانين — كما تقدم الكلام — ولما كان الصباح استفقوا الأسارى فما وجدوهم، وفتشوا أبو بشارة فما وجدوه، فحينئذ علموا القضية، ثم صاح في الفرسان، وأمرهم يركبوا الخيل، فعند ذلك ركبوا ظهور المهارة، وجدوا في قطع الصحارى طالبين بني هلال، زالوا مجدين في سيرهم، حتى قاربوا الأرض التي فيها بني هلال، فقال لهم الوزير وأخوه مريض: خذوا أهبتكم للقتال، واستعدوا للحرب والنزال، ذلك وإذا بخيل بني هلال طلعت ولعت رماحها في شعاع الشمس، وهي غائصة في الزرد والسلاح تحن خلفها قطع الرماح، وفي أوائلها أبو زيد، ومن جواره دياب وحسن القاضي وزيدان فرسان الحرب والطعان، فتبادرت إليهم عساكر جريس، وصاحوا بهم، فارتجت لصيحتهم الوديان، ثم سأل: من أنتم أيها اللئام؟ فجعل عليهم دياب بدون جواب، فتلقاه فارس يُقال له الدهقان، وتجاول هو وإياه ساعة من الزمان، حكم دياب عليه السنان، وطعنه في صدره، خرج يلعب من ظهره، وكان معه عشرة من الفرسان، فلما نظروا ما حل به حملوا على دياب فتلقاهم كأنه أسد، وفي أقل من ساعة قتل سبع فرسان، وانهزم الباقون، وهم ينادون بالعرب أنقذونا. فكان أبا زيد الهلالي في موقع الرأس المدبر للتحالف القبائلي الهلالي، ودياب بن غانم هو ذراعه الضارب.»

وعلى هذا النحو تبعد السيرة في تصوير الانتصار الأخير لدياب بن غانم على الصهاينة في ربوع الشام وفلسطين:

وأما دياب وبقية الفرسان، فإنهم فرقوا الكتائب، وأظهروا العجائب، ولما رأت عساكر الأعداء ما حل بهم من الدمار ولَّت الأدبار، وأركنت إلى الفرار، والتجأت

إلى القلعة، فتبعهم أبو زيد والفرسان، فعندما طلبوا الأمان، فأعطاهم الأمان، ورتبوا عليهم الجزية في كل عام، ورجعوا إلى مضاربهم كسبانيين غانمين، وفرق الأمير حسن ما غنموه من الجميع، وأقاموا على شرب قهوة وأكل وطعام مدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك صمموا على الارتحال من تلك الأطلال، فهُدمت الخيام، وانتشرت الرايات والأعلام، وركبت الفرسان ظهور الخيل، واعتقلوا بالرماح والنصول، وركبت النساء والبنات في الهودج والعماريات، وجدوا في قطع البراري والآكام، حتى وصلوا إلى حمص، فأقاموا فيها خمسة أيام، وكانت تأتيهم الهدايا من جميع الولاة والحكام، وارتحلوا من بعلبك، ومنها إلى زحلة، وقد طابت أيامهم في هذه الرحلة؛ لأنهم كانوا يصرفون الأوقات في السرور والطرب، وقد زال عنهم العنا والكرب، وبعد ذلك صاروا قاصدين مدينة الشام، فوصلوا إليها عند الظلام، ونصبوا المضارب والخيام.

بنو هلال في دمشق

وتتوقف السيرة في جزئها الخامس على أبواب دمشق، عقب انتصار بني هلال على أبي بشاره العطار — حاكم بلاد صهيون — الذي هو بحق مثال التاجر السامي اليهودي مثل يعقوب الذي تسمى بإسرائيل.

وتحفظ السيرة لحاكم دمشق في ذلك الحين واسمه شبيب التبعي، أو التبّع شبيب بن مالك، وهو كما يتضح من اسمه تبع أو ملك يمّني من سلالة الملوك اليمّنيين التباعنة، ملوك دول سبأ وقيتبان^١ ومعين، والدولة الأخيرة امتد سلطانها حتى شمل الخليج وبحر العرب.

ومن التباعنة اليمّنيين تبع أسعد، وابنه تبع حسان اليماني، أو ذي اليمّنيين، صاحب السيرة المهشمة التي أشرنا إليها، الذي سبق أن غزا الشام ولبنان وفلسطين بألف سفينة حربية ومائة ألف جندي إلى أن فتحها، والذي اغتاله بعاصمة ملكه دمشق بالحيلة والمكيدة ليلة عرسه الدامي من الجليّة بنت مرة، كليب التغلبي «ملك العرب» الأخ الأكبر للوزير سالم، الذي هجر منفاه الاختياري في بئر السبع الفلسطينية، وقاد حرب البسوس الشهيرة انتقاماً لأخيه المغتال بدوره كليب من أخ زوجته الجليّة، ذهل بن شيبان الملقب بجساس بن مرة: «فما أن واصلت القبائل الهلالية زحفها جدوا في قطع الفلوات، حتى أقبلوا على مدينة الشام، وكان الحاكم في تلك الأيام على دمشق ملكاً أشد فرسان المعارك، واسمه شبيب التبعي بن مالك، وقد كان رأى حلمًا في المنام، فقام خائفًا، فجمع أكابر الديوان والوزراء والأعيان، وقال لهم: قد رأيت رؤيا الآن، قالوا: ما هي يا ملك العصر

^١ الزير، ص ٩.

والأوان؟ قال: رأيت في منامي أنه قد أتى إلى هذه البلاد سباع شبه جراد. وكان كل سبع يأتي إلى شجرة يقلعها بأنياه، ولا يبالي من الأخطار. وكان لهذا الملك وزير عاقل خبير، واسمه الوزير عميرة قال:

بني هلال بجمعهم قد أقبلوا	مثل الجراد يا شبيب وأكثر
من نجد قد رحلوا بجمع وافر	وفرسانهم من كل ليث قسور
قتلوا الدبيس بعد حرب هائل	وأثوا إلى الكوفة بهذا العسكر
لاقاهم الخرمندي سلطان العجم	قتله أبو مرعي مجد لأبتر
أما الفتى القمقام فارس قومه	قتله الفتى الزغبى الأشقر
قتلوا الخزاعي بن حامد في حلب	ثم غربوا إلى حماة وسنجر»

وكان قد بلغه قدوم بني هلال إلى الشام، فزاد ذلك الأمر اهتماماً على اهتمام؛ لأن أبا زيد كان عند رجوعه من تونس ومروره إلى الشام — كما سبق الكلام — قد استخلص من داره سرية عربية واسمها قنوع^٢ وسار بها نحو بني هلال، فتأثر شبيب من هذه الأفعال، فاستدعى نجاب، وأمره أن يكشف له أخبار بني هلال، فسار ودخل على بني هلال، فأضافوه ثلاثة أيام، ورجع لعند سيده، وصار يخبره بهذه القصيدة، يقول:

يقول مسرور عما جرى له	ونيران قلبي زایدات شرار
ذهبت أكشف في هلال نزلهم	فسرت وفي قلبي لهيب النار
دخلت صيوان الأمير أبو علي	ملك عظيم عالي المقدار
وقال أهلاً وسهلاً ألفين مرحبة	لك الخير مني أنت ضيف الدار
وأمر لي حسن بخلعة سنية	بعشر مفاتيح وخمس زوار
وجدت قنوع العامرية جالسة	ومن حولها الشبان والآمار
باتت قنوع ترفع الصوت بالغنا	بصوت يحاكي العود والمزمار

^٢ يرجح أنها هي التي باعوها لسعدى ابنة الزناتي.

قد مدحت بالسكر حتى تمايلت	وقد طار عنها برقع وخمار
تميل مثل الرياح وتنثني	إلى أن عرفتني بغير إنكار
فقلت أوصي شبيب وقل له	يلاقني هلالاً صفًا ووقار
إذا جاء أبو زيد يبغي حربكم	يكن شبيب في لقاه حذار
ترى عدد قوم هلال وعامر	أربع تسعينات ألوف جهار
أبو زيد مع أجاويد قومه عددهم	تسعين ألفًا كلهم أمار
ودياب في تسعين ألف محارب	من آل زغبة من فروع كبار
وتسعين للقاضي بدير القائد	قاضي هلال فارس الجبار
وتسعين إلى حسن أبو علي	أمير حوى جاهًا وكل وقار
وهذا الذي أبصرت يا فخر الملا	وقولي صحيح ما به إنكار

فلما سمع شبيب هذا الشعر، وفهم فحوى الحديث، فقال للأكابر والأعيان من حضر في الديوان رأيكم في هذا الشأن؛ لأن بني هلال قد حضروا الآن إلى هذه الأطلال بعساكر كعدد الرمال، فقالوا: «إن الرأي هو أن نبادر بالقتال، ولكننا في أول القتال نرسل ونطلب منهم عشر المال، فإن أجابوك إلى هذا الطلب بلغت القصد، وإلا نحاربهم ونشتتهم في البر.» فاستصوب شبيب رأي القوم، وأرسل يطلب منهم عشر المال، وكتب إليهم يقول:

يقول المدعو شبيب بن مالك	لي قلب أقوى من صفا الجلمود
أنا صاحب العز والمجد والعلا	أنا صاحب الصيوان والعامود
ويا حسن قدم لنا المال عشره	وقدم لنا من أحسن الموجود
وقدم لنا عشر الخيول جميعها	عشر الحرير بيضها والسود
وقدم ألفين عود من النقا	وقدم لنا ألفين سيف هنود
وقدم لنا ألفين عقد جواهر	عقود ثمينة قليلة الوجود
وقدم لنا ألفين طير جوارح	ومعها ضواري وكاسرات الأسود
وقدم لنا قنوع العامرية بخدرها	وهاتوا عطور الورد أم الجود
وهاتوا فتاة الحي أم محمد	صبيحة الوجود أم العيون السود
وقدم لنا جمال الظعن بنت سلامة	ووطفا وريا غاية المقصود

ومن بعد هذا امكثوا في بلادنا وتكتفوا من شرنا ونكود
مقال شبيب التابعي بن مالك وما كان عارف يفهم المقصود
وإياك تمهل كل شيء ذكرته وإلا تروحوا للحبال شرود

وما إن قرأ السلطان حسن رسالته، حتى نشبت الحرب، بل إن في دمشق بالتحديد برز أكثر دور زيد وقدراته، فالمهم أن في هذا السياق الشعري الملحمي، المفضي كما هو الشأن بالنسبة لسيرتنا عن بني هلال، للكشف عن دور وقدرات أبي زيد الهلالي لتبرز طاقات ذكائه ومعرفته المستفيضة عبر سلسلة من مباريات الذكاء التي يشهد بها التبع حاكم دمشق ذاته له، سواء في مباريات الفروسية، حيث وقع اختياره على جواد الملك التبع ذاته الملقب بغطاس، وفاز به على فرسان التبع.

إلا أن التبع المتجبر قبض على أبي زيد وتابعيه من فرسان بني هلال، ووصفهم بالعبيد الجواسيس، وقادهم إلى المشنقة، لحين تدخل ابنه ووريثه الأمير الملقب بصقر الذي أنقذهم من المصلة.

«وإذا بصقر ابن الأمير شبيب أتى من الصيد والقنص، فلما نظر ذلك سأل عن الخبر فأخبروه بالأمر، فعند ذلك نزل عن ظهر الجواد إلى الأرض، وخلصهم وقطع المراس من رقابهم، فوصل الخبر إلى شبيب، فأحضرهم عنده في الديوان، ووبخ ولده على الشأن، وقال هؤلاء من بني هلال أعداؤنا، أوتوا إلى منازلنا والأطلال؛ لأجل أن يقتلوا الرجال، ويدعون بأوشم الأحوال، قال صقر: يا أبي، ما عندي خبر من ذلك الأخبار، وهذا الأمر قد جرى، وصار شفعتي في هؤلاء الشعار وتبطل كلامي، ونقص بين الشباب مقامي، فالأوفق أن نبصر لهم إهانة ولا تقتلهم، وإلا يرموا عليهم رموز أسامي ما عرفوهم، فحينئذ قتلوهم. قال شبيب: هذا هو الصواب.»

«ثم إنه التفت إلى أبو زيد وقال: يا صنديد ما كارك اليوم يا أديب؟ قال: شاعر لبيب. قال: مرادي أدعي شعرائنا وأحضرهم إلى دياره وأدعيهم أن يرموا عليك رموز ما عرفتهم، فإني أقتلك، قال أبو زيد: افعل ما تريد يا ابن الأماجيد. فعند ذلك أدعى الأمير شبيب إلى شعراء بلاده، وكانوا أربعة وعشرين شاعرًا، وكبيرهم يدعى صولجان بن ماهر، فلما حضروا أمرهم أن يرموا رموزًا على أبي زيد ورفاقه، فأجابوه السمع والطاعة، فاحتبك الديوان في تلك الساعة، فالتفت أبو زيد إلى صولجان، وقال له: يا سيد الفرسان، مرادي قبل أن تبدي شعراً وقصيدة، تسير إلى موضعك، وتأتي لنا بطعام حتى يصير بينا خبز وملح. فأجابه بما قال، وسار إلى بيته في ساعة من الزمان، وأحضر إلى

أبو زيد قصعة ملآنة عصيد، وفيها ملعقة، وقال: كُل يا ابن الكرام. فأخذ أبو زيد شفقة برأس الملعقة وذاق شيئاً قليلاً، فوجدها مرة مثل الحنضل. قال: هذا زادك! قم يا ذليل يا مهان، وهات ما عندك من الأوزان. فعند ذلك تقدم الصولجان وأخذ الرباب، وبدأ حتى أطرب ذوي العقول والألبان. وأما أبو زيد فكان يراقب الكواكب، ظن أنه ينظر إلى بنات نعش أشار يقول:

رأيت ناظرًا إلى بنات نعش	عن قبل العشي لحين تعشي
فهل عاديت نجم هواها	فهل من النعشات نعشي
فنحن في حمانا كل ما	نقري ضيفنا لحم ومحشي
فلما بصرك تقطع وتبلع	وكثر الزاد في المأكول يفشي
كأنك ضفوضة في قاع جب	محيها الماء شيئاً بعد شي
فإذا أتاها الماء تسبح	وتسمن بأكل الوحل وتمشي
فقل لي بين السحاب باعًا	وبين الأرض من شبر وتمشي
وعن عنزة تغني جنح ليل	فهل جاهدت أو تعلم بدى شي
وعيناها طوال وهي عمية	وأذناها عراض والسمع طرشي
فلا فرح ولا بيض لوالوها	ولا حبل ولا تنقل بشي
قل لي لا تكن جاهلاً غشيمًا	وكم من مدعي ما يعرفشي

فلما فرغ الصولجان وأبو زيد، سامع نظامه، وأشار يجاوبه يقول:

أراد تدانث الأشعار دنشي	وما عندك من العقل ولا شي
قولك عن أبي زيد الهلالي	غشيمًا ما يعرف الشعر إلا بشي
فأنتم تعرفون فلا تراعوا	فقول الصدق ما به من غشي
فيكم من يوم قيس أجرعوكم	ميم الأفاعي من سمن ودقش
فسوف أن هذا الحديث يجري	ويعفش في صدر الخيل عفش
ويشبع ضيفكم ضربًا وطعًا	وتبقى الروس مكدوشات كدشي
وتنظروني على حمزاء طحرمه	أرش الدم على الأرض رشي
ويجزى المعتدين بالشر معنا	وتنقش دياركم بالدم نقشي

وعيبٌ عليكم إذ لم تعرفونني
فالله يطعمك طعنة عموسي
تكون من يد أبي وطفا دياب
لأنك لا تصد ولا ترد
أنا يا طول ما أقريت ضيفي
أنا أبو زيد أنا صور الصبايا
أنا حذرتكم لا تجهلونني
أيا صولجان اعلم بأني
تسابلني عن عرش عظيم
وعن عنزة تغني مجنح ليلي
تقدم أخبرني عشرة عشرة
وهم من حين خلق أبوك آدم
يموتوا ثم يحيوا بعد موتٍ
ومنهم طايفة تأكل وتشرب
عن حوت وفوق الحوت حوت
ودولاب يدور الشغل منه
إذا لم تخبروني لمن ما أقلك
فنحن نشبع الخطار لحمًا
وحيا إلى أجاويد الرجال

أريح الحبل فالأرماع مقشي
من يد فارس قط ما يرحمشي
يروح الرمح في كرشك ويمشي
ولا تلقى الضيوف ولا تعشي
لخطر لما أهدى مقللي ومحشي
ولست بفازعًا منكم ينهشي
ستنهشكم سباع البر نهشي
عرفت مسائلك صنعًا ونقشه
فكم بينه وبين الأرض كمشه
دومًا بالأرض عطشة ثم عطشه
عدهم خمسة تربح وترشي
إلى يوم الحساب ولم يموشي
ومنهم شيء لم يتبعشي
كما منهم منذ عمره مما أرمشي
وتحت الكل بحر الماء يمشي
مجوهر فيه مر نصف البلخشي
وإلا أنت عندي مثل جحشي
ونخمش منهم بالزاد خمشي
ومن هو لكلامي يسمعني

فلما فرغ أبو زيد من كلامه، وتعجب الأمانة من ذكائه، فحزن التبع شبيب، وحلق
نقن الشاعر، وطرده من عنده، والتفت إلى أبو زيد، وقال له: بقى لي عليك ست أشياء
إن عرفتهم خلصت من دهاهم، وإذا ما عرفتهم قُتلت أنت ورفقك. فأجابه: ما هم؟
أخبرني عنهم؟ فقال له: المصارعين والمشاكين والمدافقين ورمالين الذهاب، وشالين العلم
وطباخين الكيما. باتوا تلك الليلة إلى الصباح، فقام شبيب، وأحضر كبير المصارعين،
وكان بطلًا رزينًا وما له من قرين، فلما رآه أبو زيد قال له: يا أبا العرب، دونك العرب؛
لأنه أن أجعلك في التراب، ولا تظن الصراع أكله حلو. فقال له المصارع: دع عنك شنشقة
لسان يا ذليل يا مهان، واليوم بيان الشجاع من الجبان. فقال أبو زيد: اليوم عندي
عيد يقتلك يا مهان. ثم نهض وأثبت الأقدام، وأسرع إليه مثل الأسد الضرغام، والتقى

البطلين كأنهم جبلين، وكان المصارع دافن في ركن التبان حربة مثل الثعبان، وهي شغل بلاد الروم، ويريد بها هلاك أبو زيد، فرآها دياب وقال له: خذ بالك يا أمير، وانظر هذه الحربة التي كأنها نقمة، أنا رأيته قبلك يا أمير دياب، وهذا اليوم أدعيه ملقى على التراب.»

«وقال غيره يا أمير شبيب، فتقدم رامي النشاب، فذهب أبو زيد ووقف في تلك الهضاب، فضربه أبو زيد، رماه فوق قتيلاً بدمائه، فعند ذلك تقدموا شايلين العلم فغلبهم، وكذلك طباخين الكيمياء، طلعت طبخته أحسن من طبختهم، ثم التفت إلى شبيب، وقال له يا أمير المؤمنين: لك عندنا شيء بعد من هذا التنكير، فاتركنا نذهب إلى أهلنا وعيالنا، فعند ذلك غضب غضباً شديداً، قال له: لا شك أنك عفريت من عفاريت سليمان. وبعد ذلك أمر الخدم أن يأخذهم إلى السجن لأجل القصاص والانتقام، فأخذوهم في الحال، ووضعوا في أرجلهم القيود والأغلال ووكلوا بهم جماعة من صناديد الرجال. وكان الأمير دياب ومن معه من الأصحاب في خوف وشدة، فجعل أبو زيد يشجعهم، فنهضوا في الحال، وجدوا في قطع الروابي حتى وصلوا إلى بني هلال، وكان وصولهم عند الصباح.»

«وأمر العساكر والأبطال للاستعداد إلى الحرب والقتال، فاجتمع عنده مائة ألف مقاتل لقتال بني هلال، وكانت بنو هلال قد استعدت للقتال.»

«وكان يوم شديد الأهوال، انتصرت فيه عساكر الشام، وأسرت فيه عدة من البنات والنسوان، وقتلت جملة من الفرسان، ولما أقبل الظلام رجعوا وباتوا في قلق واهتمام، وفي الحادي والثلاثين برز الأمير حسن، وطلب شبيب، فما أتم كلامه حتى صار شبيب أمامه، وانطبق على بعضهما، حتى حجبهما الغبار عن العيون والأبصار، وما زال الأمير حسن يحارب شبيب حتى قرب وقت المغيب.»

«وأما الملك شبيب فإنه كان كما تقدم قد أشرنا من ذلك الرمح على العدم، فلما رأى حاله طريح الفراش، زاد عليه الخوف والارتعاش، وأنشد يقول:

يقول شبيب التبعي بن مالك	قد زال عقلي يا ناس وراح
أنتنى جنوب تلطم على خدودها	وهي في عويل وكثر نواح
فقلت لها تحملي واصبري	إن طلبت باكر ما عز وراح
أنا إن سلمت يا جنوب إلى غدا	ترى الأعادي في بكا ونواح

«ولجأ أبو زيد إلى الحيلة، فسار إلى مضره، وهو يؤمل ببلوغ مأربه، ولما أصبح الصباح نهض أبو زيد، ولبس أفاخر الحلل، وتعمم بعمامة كبيرة، ولبس جبة قصيرة، وغسل وجهه ببعض العقاقير، فصار أبيض مثل الثلج، وأنعم من الحرير، لم يعد يعرفه أحد من الأنام، ثم ركب ظهر كديشة عرجا، ودخل مدينة الشام، وهو في هذا الزي والهندام، وجعل يجول في الأسواق وهو ينادي: أنا الطبيب، أنا الحكيم، فمن كان فيه علة أزلتها عنه بإذن الإله الفتاح. وما زال يطوف ويجول وينادي ويقول: أنا الحكيم، أنا الطبيب، حتى وصل إلى قصر شبيب، وكان لشبيب ولد مثل البدر، يقال له صقر، فاتفق أنه كان هناك، وسمعه من الشاب فقال في نفسه: إن هذا الطبيب رجل غريب، ولو لم يكن من الشطار والحقاق ما كان يطوف في الأسواق، فمرادي أن أتعرف به، أو أجعله يداويه لعله يشفيه. ثم طلبه فحضر وسلم، وقال: أنت حكيم؟ قال: نعم. قال: إذا شفيت أبي من هذه العلة والمرض، وأزلت عنه المرض أغنيك إلى الأبد، وقدمتك إلى أطباء البلد. فقال: إني سأبذل الجهد وأداويه، ولا أخرج من هذا القصر حتى أشفيه. ففرح كل من حضر هناك بهذا الخبر، وزال عن قلوبهم الغم والتكدر، ولم يعلموا بأن الطبيب عدوهم الأكبر. ثم تقدم أبو زيد إلى شبيب في صفة حكيم وطبيب، وهو يترقب الفرصة ليعدمه بالحياة عن قريب، وكان رأسه معصوباً بمنديل، وهو يتنهد من قلب عليل، ففك العصابة، ومسح الدم، ووضع له المراهم، وقال: لقد زالت الأقدار بإذن الواحد القهار. فاتفق أن شبيب فتح عينيه، فرأى أبو زيد حوله فخاف وأندر، وأيقن بالموت الأحمر، فصاح من حلاوة الروح بصوت خفيف: هذا أبو زيد صاحب المكر والكيد. فقال الحاضرون: ما هذا الذي يقول أيها الطبيب؟ قال: يريد أن تملوا الأسراج زيت، أو تخرجوا جميعكم من البيت؛ حتى يستريح أو يزول عنه اليأس؛ لأن العليل تضيق أخلاقه بكثرة الناس. ففرحوا وخرجوا من القاعة، ولما خلى المكان أخرج أبو زيد من جنبه السكين، وذبح شبيب من الوريد إلى الوريد، وقد بلغ قصده، ثم غطاه إلى فوق رأسه وخرج، فسألته عن حال شبيب الجماعة، فقال لها: إنه بخير، فلا تدخلوا عليه إلا بعد ساعة، بينما يكون قد صبحى من النوم، ولا بد أن يشفي من علته في هذا اليوم؛ لأنني عالجت به أحسن علاج، فلا تكونوا في قلق. فشكروه على ذلك، ووعدوه بالخلع والأنعام ثم ودعهم وسار..»

«وأما زوجة شبيب وباقي الجماعة، فإنهم بعد زهاب أبو زيد بساعة، دخلوا على شبيب، فوجدوه على تلك الحال، وعلموا أن الطبيب كان أبو زيد المحتال؛ لأنهم كانوا يسمعون عنه أشياء كثيرة، فاستعظموا الأمر، وأخذتهم الحيرة، وأقاموا العزاء والنحيب

على وفاة شبيب، وهم يلعنون ذلك الطبيب، وكان لشبيب أخ اسمه الصحصاح، وكان من أبطال الكفاح، قال: لا بد لي أن أتبع هذا الغدار. وركب وسار وراءه، وهو يهدر كالأسد إلى أن التقى به بقرب طاحونة خارج البلد، فلما نظره أبو زيد، ورآه عرف أنه الصحصاح، وأنه يريد قتله ووفاته، فدخل على الطاحون وغَيَّرَ لونه بالأعشاب، ونزع منه الثياب، ثم خرج، ووقف على الباب، فلما وصل الصحصاح إليه اشتبه أمره، فقال له: علمني مَنْ صاحب هذا الكدِش، فقال في الطاحون، فنزل على ظهر الحصان، وسلمه مع الرمح لأبي زيد، ثم سَلَّ سيفه، ودخل إلى الطاحون مثل المجنون، فلم يجد سوى الطحان هناك، فضربه وخرج في الحال، وهو يظن أنه قتل أبو زيد المحتال، فوجد أبو زيد على ظهر الحصان، يتعجب من ذلك الشأن، وقال له: من تكون قافلاً؟ فما أتم كلامه حتى طعنه أبو زيد بالرمح في صدره، فوقع على الأرض قتيلاً، وسار أبو زيد حتى دخل على الأمير حسن في الصيوان.»

«أما أهل شبيب، فإنهم لما علموا بقتل الصحصاح زاد عندهم النواح، وأحضروه لجانب أخيه، وأقاموا عليهما النحيب، فتقدمت جنوب زوجة شبيب ترثيه بهذه الأبيات، وزادت عليهم الحسرات:

تقول جنوب الخير بما جرى	بدمع جرى فوق الخدود سكيب
الأيام والدنيا كفى الله شرها	ومن عاش فيها ينظر التنكيب
فما أضحكت إلا بكت بعد ضحك	ها، فيا لها من حسرة بعد شبيب
ألا يا نجوم الليل عاملينه	لعل أوجاع الفؤاد تطيب
شبيب الذي فرق له الرعد بالسما	وصاحت دونك العرش مات شبيب
شبيب الذي ما رأت البرك مثله	وما ربت الدايات مثل شبيب
شبيب الذي يلقي الضيوف بفرحة	ومسرة ولو كان الزمان جديب
فيا ليت من كان السبب بفراقنا	يقتل بحد الماضيات قريب
ألا يا حمام النوح توجها وانذبوا	وابكوا عن فقد الأمير شبيب
يا هل ترى الأيام عادت تلمنا	وتجمعنا به بوقت قريب
شبيب الذي بكته الناس كلها	وصاحت ديوك العرش مات شبيب
تقول فتاة الحي مما أصابها	ولا عيش لي بعد الحبيب يطيب»

«فلما فرغت هذه المرثية جعلت تبكي وتنوح من فؤاد مجروح، وتلطم على خدودها من شدة الأسف، وتقول: والله لقد انهدم شبيب العز والشرف. فبكت الناس لبكاها، وعزوها على ما دهاها، ثم أجلسوا شبيب على كرسي من الذهب الأصفر، مرصع بالدر والجوهر، وألبسوه عدة الحرب، وبكوا على ملكهم حتى كثر الصياح، وارتفع البكاء والنواح، وتكسرت السيوف والرماح، ثم تقدمت جنوده وهي ترقص بالسيف.»

وتوغل السيرة في سردها لتفاصيل الأحزان التي عمت دمشق، وطقوس الدفن واستخدام الإيقاعات العنيفة من سيوف ودفوف، عبر طقوس الانفصال، كما أسماها فان جنب، أي انفصال — روح — الميت عن الأحياء.

فلقد وصلت المناحة إلى حد رصد السيرة عبر ما تقدمه وتسوقه إلينا من معلومات إثنوجرافية تلقي المزيد من الضوء القوي على الكثير من الممارسات الشعبية التي ما يزال جانبها الأعظم سائداً لدى مجمل شعوبنا وكياناتنا العربية، منها الكيفية — الآسيوية — التي انتحرت بها تلك الزوجة النائحة «جنوب»، حين وضعت رأس السيف في بطنها، بينما قبضته في الأرض، وظلت ترقص في عنف من حوله، ثم انكبت عليه، فخرج يلمع من ظهرها، عندئذ ضج الجميع بالعويل.

الهلالية في القدس وغزة

وعندما استقر الرأي للهلالية في حكم دمشق، ولى السلطان حسن الهلالي الأمير صقر أمرها بدلاً من أبيه التبع.

ثم أمر بدق طبول الارتحال، فهدمت الخيام والمضارب، وركب الفرسان باتجاه القدس وفلسطين التي وصلوها بعد ستة أيام، فنزلوا خارج المدينة، وزاروا الأماكن المقدسة، ومنها رحلوا بعد عشرة أيام باتجاه «غزة بقلوب معتزة».

«إلى أن عملت طلائعهم على جمع المعلومات عن ملكهم السركسي بن قارب، وهو صاحب جيوش ومواكب، وعنده خمسمائة ألف من الأبطال، والذي ما إن بلغ خبر اجتياح الهلالية لبلاده فلسطين، حتى تكدر واستشار وزيره وقائد جنده الأمير راشد».

وبدور حاكم غزة، أرسل عيونه وبصاصيه لمعرفة قوة وحجم الجيش الغازي لبلاده، وعاد إليه من يخبره بما عنده من الخيل والجمال والأموال، «فعددهم أربع تسعينات ألوف من الذكور، وبناتهم مثل البدور»، وعلى عادة ما هو متبع بالنسبة لسيرتنا هذه، طالبهم السركسي بعشر المال:

إلى حسن أمير قيس وعامر	أمير البوادي في الملوك جليل
فأرسل لنا عشر المال مع الغنم	وعشر النسا جمالكم والخيل
هاتوا فتاة الجازية أم محمد	لها عيون سود وطرف كحيل
وأرسل عطور بنتك بلا خفا	بعيون سود مكحلات رميل
وريا ووطفا بعدها	ليس لهم بين النساء مثيل

وبالطبع ما إن قرأ الأمير حسن الهلالي على شيوخ القبائل رسالته، حتى أرسل له معلناً الحرب:

اسمع ترى يا سركسي لمقالتني	فأنت تريد الجازية قنوع
تطلب بنات محصنات كواعب	وتريد أخذ سيوفنا ودروع
فما لك عندي سوى السيف والقنا	أجمع عليك من دريد جموع

والمقصود بدريد هنا، قبائل دريد.

وهكذا اندلعت الحرب بين الهلالية وحاكم غزة الذي نازلهم بثلاثة آلاف فارس في أول معركة، نازله فيها أبو زيد على رأس القوة الهلالية. إلا إن السرکسي — كما تصفه السيرة — كان «أفرس زمانه، وكانت تُضرب به الأمثال وتهابه الفرسان».

لذا سجلت السيرة اندحار أبي زيد أمامه وعودته منسحباً مكوراً إلى مضارب بني هلال، حتى إذا ما تلقته نساؤها تتقدمهن الأميرة «عطور الجيد» ابنة السلطان حسن بن سرحان، ليسألنه عما جرى، أجابهن مسروراً معترفاً بهزيمته، إلى حد قوله إنه أصبح «زمن النساء»:

قال أبو زيد الهلالي سلامة	والدمع من فوق الخدود سيجام
أيا عطور الجيد إن السرکسي	يشبه الذئب قد حظي بغنائم
روحي وقولي لأبيك أبو علي	ينزل إليه باكر ويهاجم
ما دامن النسوان تولى في الوری	تظهر فوارس كالسباع تصادم
هذا السرکسي ما أحد يصادمه	إذا قام في ظهر الحصان يلاطم
فامضي إلى حسن الهلالي والدك	وقولي له أبو زيد ولى هزاي

حتى إن البنات استعظمن الأمر، واستقر الرأي بهن إلى اللجوء إلى دياب بن غانم، يناشدنه منازلة السرکسي.

وما إن استجاب لمشورة السلطان حسن ونساء هلال المحرضات على القتال، حتى نزل إليه، إلا أن دياب بن غانم بدوره، تخاذل أمام هجماته، وانسحب إلى صيوان السلطان حسن، فلما شاهده بادره من فوره: «أراك في خوف واضطراب!»

فأجابه:

السركسي ما رأيت مثله فارس يفتح على الحروب أبواب
ما له مثل في الهلال وعامر أيضاً، ولا في ساير الأعراب

«فانهزم الأمير دياب ببني زغبى، وأبو زيد ببني زحلان، والأمير حسن والقاضي بدير ببقية الفرسان، وتبعهم الوزير راشد، وشنتهم في جوانب القفار مسافة ثلاثة أيام، وكسب منهم غنائم كثيرة وأموال غزيرة، ولما أظلم الظلام رجعت الفرسان عن بعضهم البعض، ورجع الوزير والجمال، وصارت بني هلال مشتتين في البراري والتلال، واجتمع الأمير حسن والأمير دياب والأمير أبو زيد وأكابر الديوان، وأخذوا يتشاورون في خلاص ما أخذه منهم قوم السركسي، وكيف يقتلوا الوزير الذي كان سبب هذا البلاء.»

قال الراوي: «وكان للأمير حسن ابن أخت شديد البأس قوي المراس، يُسمى الأمير عقل، وكانت أوصافه ممدوحة مستحسنة، وعمره أربع عشرة سنة، فلما رأى ما جرى وكان، وانهزام الأبطال والفرسان من قتال السركسي في ساحة الميدان، واستعظم ذلك الشأن، فجاء إلى عند خاله الأمير حسن، وتعهد له بقتل السركسي، وإزالة الكروب والمحن، بشرط أن تذهب معه النساء والبنات، ليشجعوه في الحرب والثبات، ثم إنه بعد ذلك الكلام أنشد هذا الشعر والنظام:

يقول الفتى الأمير عقل بما جرى	ونيران قلبي زايدات وقيد
أنا فارس الفرسان في حومة الوغا	أخلي الأعادي بالفلاة شريد
فنادي بنات هلال تأتي بسرعة	ونادي لنا أم الأمير شديد
ونادي الجازية أم محمد	وغيا وريا ثم أم الجيد
ونادي لوطفا بنت عمي وزينب	وعليا ونجلا حسنهن يزيد
قاربك فعلي فيه يا أبو علي	وأريه طعنًا في الجمال شديد
على ظهر حمرا ليس يوجد مثلها	أنا فوقها قوم أصيل عنيد»

«ثم إن الأمير حسن أمر الجازية أن تنتخب في الحال مائة بنت من خيار البنات الأبقار اللواتي يشبهن الأقمار، فحضرت بهن عند أخيها، وقالت له: ماذا تريد أن أفعل؟ قال: تذهبي مع البنات ومع الأمير عقل إلى ساحة الميدان، وتتشدون الأشرار الحسان كما

فعلتم مع غيره، حتى يتحمس على قتل السركسي بن نازب. فلما سمعت الجازية كلامه، قالت: كيف نذهب مع عقل، وهو ولد صغير السن؟! أليس هو صغير السن والقتال؟! إذا كان أبو زيد ودياب لم يقدرُوا على السركسي، فكيف يقدر هذا الصبي؟! وربما يأسرنا السركسي وتبقى معيرة بين الأعادي.»

«وفي الحال ركبت العماريات أمام الفرسان والأبطال، واعتقلوا بالرماح والنصال، وقصدوا ساحة القتال.»

وهكذا لعب هذا الأمير الشاب الجديد عقل دورًا في إنقاذ التحالف القبلي في فلسطين، بصموده أمام جحافل جيش السركسي، وإمداداته التي رجحت كفة قواته عليهم. وأما بنو هلال فإن الأمير حسن بعد رجوعه إلى المضارب دعا الأمراء لهم: «نحن رجال قصدنا الوصول إلى تونس الغرب، لنخلص أسرى الزناتي خليفة بالحرب، والرأي عندي الآن أن نهجم في الصباح بالأبطال والفرسان، ونحارب أعداءنا حتى نبليغ الآمال، ونسير بالعجل من هذه الأطلال، ويركب الأمير دياب في بني زغبي الشجعان، والقاضي بدير، والخفاجي عامر مع الأمير زيدان الرياشي مفرج وعرنديس الأزعري والأمير عقل يقصدون الميدان والأمير أبو زيد يركب في بني زحلان، ويقصدون أبواب غزة بعد حضور السركسي إلى الميدان.» وهكذا تم الاتفاق.

«هجم الأمير عقل وزيدان، واقتلعوا السركسي من ظهر الحصان، وارتقاه بالسلاسل والقيود، وأخذاه إلى الخيام، وبلغوا المقصود، ولما بلغ أبو زيد هذا الخبر فرح.»

«وهكذا دخلت بنو هلال غزة بقلوب معتزة، فغنموا الأموال، وخلصوا صباياهم من الاعتقال. وفي اليوم الثاني أقبلت أهالي البلد والأكابر والعمد، وطلبوا من الأمير حسن الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل مناديًا ينادي بالأمان الاطمئنان، فاستكنت الأحوال، واستبشر بنو هلال، ثم حشرت قواد الفرسان والأمراء عند الأمير حسن، فشكرهم وغمرهم بالعطايا ثم أحضروا عقل، وأكرموه على ما أبداه من الحرب والصدام، وقلده الأمير حسن مقام الأمراء العظام، وألبسه سيفًا مرصعًا بنفيس الجواهر.»

«فتقدم الأمير زيدان شيخ الشبان، والتمس من الأمير حسن أن يأمر بعمل عرس لأولاد الأمارة الذين حان وقت زواجهم، حيث تمت الحروب، واسترحنا من الشدائد، وركبت أولاد الأمارة فوق الأمهار والأبراش، وعملوا عراضة عظيمة، وبعده عملوا عرسًا بالمسرات، رقصت أمامهم النساء والبنات أيام.»

«وأحضروا السركسي مقيّدًا بالأغلال وهو صامت، وأدخلوه عند الأمير حسن يطلب العفو، وكان الأمير أبو زيد عن يمينه والأمير دياب عن شماله، فهدده الأمير دياب

بالعقاب والانتقام على ما جرى، فحينئذ طلب منه العفو والأمان، وقال: يا دياب يا شتي هو سبب الأذية والضرر، وكان سبباً لسبي النساء.»

«فأمر السلطان حسن بإطلاق الأغلال عنه، وقال: يا سرکسي العفو عنك إذا حفظت الشرائع الملوكية، وهي أوصيك بمحبة الله، وحفظ شرائعه ووصاياه ما دمت على قيد الحياة، ولا تكون لحوماً في الكلام، ولا مدمناً لشرب، بل حافظاً لزمم الاحتشام، متخلفاً بأخلاق الكرام مع الخاص والعام، متجنباً كلام الهزء والهذيان، واقياً نفسك من عثار اللسان؛ لأن سدود الأحرار قيودها، فمن صان نفسه ملك أمره، ومن باح لم ينجح. وزاد: واحذر يا سرکسي من النساء الأشرار، فإن مكرهن عظيم، وخطواتهن تؤدي إلى قاع الجحيم؛ لأنهن أصل الأذى والضرر، وهن أغدر من كل إنسان، وإياك أن تغفل عن أحوال الرعية، وتتعدى القواعد الهلالية، وتخلف قوانين وشرائع الملوكية، بل سالماً الطريق المرضية، معاملاً الكبير والصغير بالسوية، رافعاً لشكوى المظلوم حجابك، فاتحاً في وجهه بابك، واضعاً الأشياء في محلها والمناصب في يد أهلها، ولا سيما ولاية الأنظار وأرباب الوظائف الكبار، فينبغي أن يكون هؤلاء الرجال من خواص العيان ومن أهل الفضل، فإذا كانوا على هذه الحالة تستقيم أحوال الرعايا، وينشر العدل في كل مكان، فترى الذئب مع الغنم، وتبات العصافير في الرخم.»

وهكذا استتب الأمر لبني هلال في القدس وغزة، عقب وصايا السلطان حسن لحاكمها، وما إن دقت طبول الرحيل، حتى وقعت حادثة جديدة للأمير جابر والد زوجة أبي زيد العالية.

حيث تمكن أحد أمراء الشام وفلسطين، ويدعى البردويل بن راشد حاكم العريش، من قتله «بوسط عكا»، وسبى العالية زوجة أبي زيد، إلا أنه تمكن من قتله، واسترداد زوجته التي سبهاها ملك العريش، واتخذت الهجرة الجماعية طريقها إلى مصر.

الهلالية في مصر

ويبدو أنه عن طريق العريش، وعبر برزخ السويس قدمت جحافل الهلالية المهاجرة الغازية إلى مصر — العليا — مرورًا منها إلى ليبيا وتونس؛ لتحط رحالها في أرض تونس الخضراء، بحجة تحرير أسراهم «يونس ومرعي ويحيى» الذين احتجزوا بسجن القصر المنعزل البديع المطلي بالرصاص، للأميرة سعدى ابنة حاكم تونس وفارسها الزناتي خليفة.

وعندما وصلت الهلالية إلى مصر، كان قد مضى سبع سنوات على احتجاز الأمراء الهلاليين الثلاثة، وإيداعهم سجن سعدى، التي أحبت — الأوسط — مرعي إلى حد العشق.

هكذا يخبرنا الرَّمال المنجم الذي استقدمه حاكم مصر في ذلك الحين، ولقبه «فرمند مصر»، الذي رأى حلمًا أربعه:

رأيت نارا أضرمت في بلادنا	قد أحرقت أشجارها وأكرام
رأيت سباعًا ماليا السهل والفضا	ومعهم لبوات بحسن قوام
فوليت نحو القصر هارب مرتعب	ألا وطيّر أبيض على حام
ضربني بمنقاره وحط مخالبه	في وسط قلبي والدماء قد عام

وعلى هذا فمن المرجح أن ذلك الرَّمال أو النجّام الذي توجه إليه «فرمند مصر» بالاستشارة، كان يعمل لحساب بني هلال، ذلك أنه أعظم من شأنهم وقوتهم ناصحًا

بعدم التعرض لهم، وهم في طريقهم مرورًا إلى تونس والمغرب، للإفراج عن أسراهم، ملماً بتفاصيل أحداثهم:

محابيسهم عند الزناتي خليفة لهم عنده مدة سبع أعوام

وعلى الفور قدم إلى الملك — الفرمند — حاكم الصالحية؛ ليخبره بوصول بني هلال، بل ودخلهم عليه في هيئة نساء سبايا هدية من سلطانهم حسن بن سرحان في أعقابهن أبو زيد الهلالي بلباس ومكياج مهرّب الكواعب «قشمر بن منصور».

«فاستبشر الملك وشرب كثيرًا، ومدت الموائد، وعند ذلك غنت البنات، ودقت على الآلات حتى كاد يرقص القلب، وكان الملك وقعت عينه على الجازية فهام بها، وتعلقت نفسه؛ لأنها كانت جميلة المنظر، فأجلسها على جانبه، والتفت إلى أبو زيد: مَنْ تكون هذه يا قشمر؟ فقال: هذه الجازية ذات الوجه الحسن أخت الأمير حسن. فالتفت إليها، وقال لها: غني لي على الكأس يا صبية الجمال، فإن قلبي قد مال. وما زال يشدّ عليها، ويتذلل إليها حتى أجابته إلى مناله، وأخذت تغنيه بهذه الأبيات تقول:

تقول الجازية بقلب محروق	فنحن اليوم قد جئنا هدية
هدية من أبي مرعي الهلالي	أمير البوادي والرمية
أخي ابن سرحان المسمى	أمير ابن أميرة برمكية
وجئنا لمصر عندنا حلائل	ولا عاد فيه رواح ولا مجية
تقول الجازية من قلب محرق	أيا حيف الزمان أحيف عليّا

«فلما فرغت الجازية من كلامها، أطرب الفرمند من نظامها، وشرب الكأس عن اسمها، وهو يتأمل في محاسنها وبياض جسمها، ثم أمر قشمر أن يملأ له كأسًا آخر، فملأه وناوله إياه، فأخذه وتقدم وطفا بنت الأمير دياب، وقال غني على هذا الكأس يا بنت الأمجاد، فجعلت تغني وتقول:

تقول وطفا فؤادي اکتوى	بدمع جرى فوق الخدود غزار
يا أمير مصر اشرب واسكر بالهنا	وانظر بناتًا تشبه الأقمار»

حتى إذا ما وصل حاكم مصر إلى أقصى نشوته، وضعن له البنج أو العقاقير، وأخرجوا فرسانهم من داخل الصناديق، بحسب الحيلة الطروادية الشهيرة، ودارت

معركة داخل مخدع فرمند ذاته، تذكرنا بذات الخدعة التي أحدثها كليب الفلسطيني بمشاركة خطيبته الجليلة بنت مرة داخل مخدع التبغ الغازي للشام وفلسطين، حسان اليماني.

إلا أن الحيلة هذه المرة لم تأت فعلها السريع، فامتدت الحرب بين الهلالية وفرمند مصر وابن أخته الأمير محمود، إلى أن قتل أبو زيد محمودًا، وسقطت القاهرة في أيدي الهلالية الدخلاء.

وتستطرد السيرة في تقديم محصلة من المعلومات — الإثنوجرافية — المفيدة للمصريين وطبائعهم في ذلك العصر الوسيط.

وكذا المسجد الذي شاده الذي شاده السلطان حسن الهلالي بها والذي ما يزال موجودًا إلى اليوم.

«فلما رأى المصريون تلك الأحوال خابت منهم الآمال، وأيقنت الهلاك والوبال، واجتهدت أن تخلص جثة ملكها فما قدرت، وقد أهلكها ما رأت وأبصرت وامحلت عزائمها، وتأخرت واشتد عليها الحصر، وخاب أملها في النصر، فرجعت وطالت مصر، وهي على أسوأ حال لا تعرف اليمين من الشمال، فتبعتهم بنو هلال على الأقدام، وفي مقدمتهم أبو زيد ودياب وزيدان شيخ الشباب، وحكموا فيهم ضرب السيف القرضاب على الأجسام والرقاب، حتى دخلوا البلد وهم في حالة الذل والنكد، فلما رأت أكابر المدينة والأعيان ما جرى، وكيف أن الفرمند شرب كأس الهوان، وما خرجوا إلى عند السلطان حسن بن سرحان، وطلب منه العفو والأمان، فأجابهم إلى ذلك الشأن، وأوصى الأبطال والفرسان، لا ينهبوا من أمتعة المدينة لا رخيصة ولا ثمينة، بل يكونوا في هدوء واحتشام إكرامًا لمزارات الأولياء، ومقامات العلماء والعظماء، وكان للفرمند، ولد مقتدر اسمه الأمير منذر، فأحضر إليه قبلة بين عينيه، ثم ولاه مكان أبيه بحضور أكابر البلد والذوات والعمد بعد أن أوصاه أن يتصرف بحسن السلوك، ويتخلق أخلاق الملوك، ثم قامت الأفراح، وزالت الهموم والأتراح، وكان السلطان حسن قد استحسن مصر كل الاستحسان لكبرها، وما فيها من الأبنية الحسان، فصمم أن يبني له فيها على اسمه جامعًا ليكون ذكرى له على طول الزمان، فأمر البنائين والمهندسين ببناء الجامع المذكور في ظرف ستة شهور، فأجابهو إلى ذلك المرام، وبعد أن تم بتمام، أمر أن يفرشوه بنفيس الفرش، وينقش حيطانه بأحسن النقش، فامتثلوا أمره في الحال كما قال، فكان جامعًا عظيم المنال، يزهو كالهلال، وكان مكتوب على بابه بالذهب هذا جامع الأمير حسن الهلالي سيد العرب.»

وبالطبع، فإن الجامع ما يزال قائماً إلى أيامنا — كما ذكرنا — ويُعرف بجامع السلطان حسن.

ولم يمكث الهلالية كثيراً في مصر، بل واصلوا رحيلهم إلى ليبيا، لكن في الطريق وقعت عدة أحداث، منها المشاحنات المتجددة بين العالية بنت جابر زوجة أبي زيد والجازية خاصة بالقرب من عيون الماء المتفجرة التي تسميها السيرة بالمخاضة، حين سبّت الجازية العالية «يا عشيقة عبدنا»، وكانت تعني أبا زيد.

ومن هنا ذلك الحب المشتعل من فوره بين الأمير ماضي بن مقرب وبين الجازية، وحين حاول التقرب منها بالزواج، نصحه المقربون منه بطلب فرس دياب بن غانم «الخضرا»، وفي حالة رفض مثل هذا الطلب؛ لأن روح دياب بن غانم في فرسته هذه يطلب بدلاً منها الجازية، مع ملاحظة توحيد المرأة بأنثى الحصان، بل وأهمية فرس دياب هذه التي سيساوم حين موتها بأخذ تونس عوضاً عنها ... إلا أن السلطان حسن الهلالي حقق طلب ماضي بن مقرب، وأرسل له الخضرا، فردها بدوره مع هدايا كثيرة، طالباً الزواج بالجازية:

بدمع جرى فوق الخدود بدار
وأبذلت فيها أموال ثم جياذ
وكفك سخي طول المداد
أريد منك النسك بلا ميعاد
وهي بنت عمي بغيتي ومرادي
وميت حصان أدوجي شداد
وميت حمل من عمل بغداد
وميتين سرية من الأعباد
وألفين سيف صنعة الهناد
مركبة يا أمير على أعماد
وألفين دبوس من البولاد
ذهب مصري يعب للنقاد
وأنت لنا يا أبو علي أسناد

يقول الفتى ماضي بن مقرب
أرسلت لك خضرا دياب بن غانم
ونحن نعرف يا أمير مكارمك
وأنت نعم الطلب عالي الحسب
أريد فتاة الجازية أم محمد
فخذ مني ميتين فتاة الجازية أم محمد
وميت يماني حرير صنعة اليمن
وميت عبد يا أمير وعبدة
وميتين مملوك من الترك أصلهم
وألفين حربة صنعة أبو جيارة
وميتين درع يا أمير وخوذة
وخذ لك ثمانين من الدراهم
مقال الفتى الماضي بن مقرب

وما إن قرأ سلطان بني هلال خطاب ماضي بن مقرب، حتى استدعى الجازية، وأخبرها بطلبه، فذُعت الجازية فكيف يحق لها الزواج، وهي زوجة الأمير شكر أمير مكة، وأن ولديها محمد وعمر، وهي التي ضحّت بزوجها ولديها، لترافق قومها وقبيلتها، بمعنى أن ولاءها هنا إنما للقبيلة أولاً قبل الزوج والأبناء.

وما فرقة الأولاد إلا مصيبة فما يدخل عيني قط سهاد

وهنا أرسل السلطان يستأذن زوجها أمير مكة، وحصل منه على موافقة بالتخلي عنها للزوج — السياسي — القادم الفرند حاكم مصر العدية.

وهكذا تم الزواج بالفعل بين الجازية، وذلك الأمير ماضي، وتصف السيرة الفرح أو العرس المصري على نحو لا يختلف كثيراً عما يتواتر ممارسته إلى أيامنا.

«وكان الماضي قد زين القصر بأنواع الحرير والقماش الفاخر، واستقبلهم أحسن استقبال، ونزلت العروس عند الحريم، ثم دارت الحلويات وكاسات الشربات على مائدة الأمراء والسادات، وبعد ذلك حضرت سفرة الطعام، وفيها من جميع اللحومات كالضأن والدجاج. وبعد أن أكلوا وشربوا ولذوا، رقصت النساء والبنات، وغنت المغنيات بأنواع الأصوات، واستمر الحال والقوم في فرح وسرور مدة ثلاثة أيام، واتفق في اليوم الرابع أن يستأذن الأمير حسن من الماضي بالمسير لبلاد الغرب، فقال الماضي: أيها الملك تقوم عندي في هذه الأطلال، فبلادي واسعة كثيرة المراعي والأوفق نبقى معاً.»

«ولما صممت بني هلال على الذهاب والرحيل، جعلت الجازية تبكي بدمع غزير؛ لأنه لم يكن صبر ولا سلوان على فراقهم، فلما زاد عليها الحال أكثرت من النحيب والأعوال، فانزعج الماضي، وسمح لها بالذهاب معهم إلى الغرب، ففرح بذلك الأمير حسن، وحالاً أمر الفرسان بالركوب، فركبت الفرسان، وساروا قاصدين بلاد الغرب، فعند ذلك ركب الماضي بالفرسان، وساروا بصحبته مسافة ٣ أيام، ثم حلف حسن عليه بالرجوع.»

وما إن وصل الهلالية تونس، حتى نزلوا بين جبلين بوادي مزهر اسمه وادي الرشاش.

وعلم الزناتي بخبر وصولهم على نحو — إثنوجرافي — ملفت، ذلك أنه طلب من ابن أخته الذي هو في موقع وزير داخلية تونس، العلامة بن غصيبة المضي إلى الصيد والقنص، حتى إذا ما عاد بصيده ووضعه أمام الزناتي بادره: «يا علام، ما هذا الذي

أرى؟ فلم يجلب لنا هذا الصيد إلا العجائب!«^١ فبادره العلام من فوره: «وأنا أقول إن ما جلب ذلك لنا ليس سوى العبد الذي حبست رفاقه^٢ ... وها هو يحضر قومه بجحافلهم لاستباحة بلادنا.» وأنشد:

يقول الفتى العلام ولد غضبية	لقد بان عندي يا أمير حروف
فهذا عربان الهلالي أبو علي	عليهم الذهب وهم قاعدين دفوف
هذا ملكهم ابن سرحان يا ملك	أمير ابن أمير سيد المعروف

وكالعادة، حاوطت المخاوف الزناتي خليفة، فجمع مجلس حربه، وعلى رأسه ابن أخته الأمير الملقب بالهصيص، الذي هوّن من مخاوف الزناتي، وهو الذي «تحت يديه أربعة وعشرون أميرًا، وكل أمير يحكم على مائة ألف عنان»، وأمره الزناتي بإحضار قلم وقرطاس، وأشار إليه أن يكتب إلى ملاك بلاده على طول الديار التونسية والمغرب العربي، الأندلس وشبه جزيرة أيبيريا بعامّة وما بها من ممالك ودويلات، سبق أن غزاها ذات هذا التحالف العربي الهلالي، وفي طليعتهم الفينيقيون من شعوب بحرية لبنانية وفلسطينية وسورية، منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، حيث حطوا رحالهم أول أمرهم في قرطاج أو تونس، انطلاقًا منها إلى إسبانيا والبرتغال، أو ما يُعرف فيما بعد بالأندلس، حيث وصلت الدويلات أو المدن الدول العربية إلى ١٤، منها بنو الأحمر، وبنو طليطلة، وبنو الزيري، ومظلوم ... إلخ.

وهكذا ما إن اندلعت الحرب بين الهلالية، وتحالف الزناتي، حتى نازلهم في البداية أخوه الأمير الهصيص، الذي تولى منذ البداية تجميع تحالفهم القبلي على طول المغرب العربي والأندلس، كما يتضح من قصيدته هذه:

يقول الفتى الهصيص قام لحربي	والنصر بالله والسيوف الجذب
يا حاضرين اسمعوا ثم انهضوا	قوموا وسيروا لبلاد الغرب

^١ يقصد طيورًا غريبة على تونس.

^٢ يقصد أبا زيد الهلالي.

وأنت يا علام روح بالأندلس
وأنت يا منصور روح لفارس
وأنت يا زيتون روح لقاعة
وأنت يا عضرون روح لناسة
وأنت يا ضرخام روح لمغيرة
وأنت يا مقدار روح المندرة
وأنت يا شمعون روح لأكرة
وأنت يا طلهيان روح لباجة
وأنت يا عماد روح لأغمداس
وأنت يا جفال^٢ روح لكسرة
وأنت يا رداح روح لتراة
وأنت يا فراج روح وانهض
وأنت يا عجاج روح لتغريب
وأنت يا بليص روح لتورس
وأنت يا حماد روح ونادر
وأنت يا بولاد روح لحربة
وأنت يا شداد روح لقابس
وأنت يا عبود روح عن بجي
وأنت يا حماد روح مقصد
وأنت يا سليمان أظهر الخبر
وأظهر الأخبار بأعلى صوتك

إياك تحكي أو تنادي تكسب
هات لهم أبدال من صبي
قول لهم أتوك ركبي
حتى يقفوا كأنهم بالضرب
أيضاً بلاد الكرم قوم النجب
وأرض زبلالي يجونا بقربي
وقول لهم القوم عادت قربي
وقول لهم عادت قربي
ولجبل ولد يروم ابن المتنبي
مثل الهبوب وقل لهم يا غضبي
للمير وسليمان المغربي
ونادي لكرم ثم بلاد العنب
لأرض مراکش ثم لأرض السلب
إلى أرض ثم أرض القصب
لأرض مكناس وبلاد الشهب
ودور كل دايرة المنهشبي
دعهم يقيموا عند باب الدرب
ونادي بأعلى الصوت حاكم كربى
واركب جوادك لبلاد الهدبي
في قيروان وقابس الغربي
في أجهر العلا تغيبى

وبالطبع اندلع القتال بين الهلالية وفرسان تونس والمغرب العربي بعامة حتى
الأندلس، كما يتضح من القصيدة السالفة، والدعوة للتحالفات القبائلية التي كانت
تتزعّمها في ذلك الوقت تونس أو قرطاج.

^٢ عشيرة فلسطينية، ينتسب لها د. مصطفى جفال.

وفي البداية نازلهم العلامة بفرسانه، مستخدمًا الحيلة والكمائن التي اشتهر بها، ذلك أنه حاصر الهلالية بدءًا من المؤخرة بدلًا من المقدمة ليسبي مؤنهم وخيولهم ومواشيهم، وبالفعل أثار فيهم وفي صفوفهم الذعر والتشتت، مما دفع بالنساء والأطفال إلى الاستغاثة بالسلطان الهلالي طلبًا للحماية، فما كان منه إلا أن جمع مجلس مشورته وفي المقدمة «الجازية»، الذين بعثوا في طلبها من ليبيا، على اعتبار أن لها الكلمة العليا، فللجازية ثلث المشورة، وهكذا أجمعت المشورة أو الشورى إلى انتداب الأمير دياب بن غانم إلى حماية المؤخرة، حيث إمدادات ومؤن الحرب، من خيل وماشية ومأكل وربما سلاح وعتاد وعبيد ونساء وعجائز ... وهكذا.

ووافق في النهاية دياب بن غانم على هذه المهمة القاسية في حماية الخيل والنساء على مضض، بل إن تلك الواقعة ستظل سببًا دفينًا مؤرقًا لدياب للانتقام المتجبر فيما بعد من الهلالية — القيسيين — لاعتقاده الراسخ فيما انطوت عليه مهمته هذه من إهانة، بانتزاعه من القيادة والمقدمة، إلى حيث يصبح مكانه الذيل والمؤخرة، وهو الذي هاجمه أعداؤه على الدوام واصفين إياه بدياب الخيل.

والملاحظ أن السيرة تطلق على إمدادات الحرب من بهائم وخيول ورعيان وعجزة، تعبير «البوش».

وهكذا ساق دياب ذلك «البوش»^٤ وسار به إلى وادي يُطلق عليه وادي الغبارين، فرأوا فيه «الزهور فاتحة المياه سابعة»، فأوصلهم أبو زيد ودياب ينشد مشيرًا إلى أزمته الداخلية التي ستدفع به إلى التسلط والديكتاتورية، وانتزع كل السلطة له على الغرب عامة، فيما يلي من فصول وعقب فتح تونس، منشداً:

أنا دياب بن غانم يا حسن طيب	لا تخافوا عليّ لو سطى الديب
طيباً لقلبك عليّ بوشك يا ملك	ولا تخافوا عليّ في المخاريب
المال مال ما يدنو عليه أحد	إني مجرب بإذن الله تجريب
أنا ابن غانم وكل الناس تعرفني	فعل شهودي تعرفه الأقاريب
وأنتم كونوا حذاري نحو أنفسكم	وحافظوا على حريمي والمراكب

^٤ من مال ورعيان تحدد عددهم السيرة بستة آلاف راع وعبد، السيرة ص ٢١٨.

ثم احضروا للزناتي حين يطلبكم
أنتم هلال ما حد يقهركم
كونوا قومًا عرايس في المضارب
حكمتم الأرض شرقًا وتغريب
كم من ملك عدا عار ملكه قهراً
ودعيتم قومه شرقًا وتغريب
الهند والسند ثم السريب واليمن
كل الملوك بقوا مهاريب

وهكذا ودّع أبو زيد الأمير دياب بن غانم بأروع أشعاره دون إنقاص من قدره
وقدراته:

كم وقعت أشفيت هلال أنت يا زكي الجدود

لكن هيهات، ذلك أن مغتال أبي زيد عقب فتح الغرب وحكمه دون شريك، هو
بذاته ... دياب بن غانم الزغبى.

وتشتد ضراوة المعارك بين الهلالية بقيادة أبي زيد والتحالف المغربي بقيادة
الزناتي خليفة وأخيه الأمير الهصيص.

ويبدو أن أبا زيد الهلالي تفرد في تلك الوقائع بمبادرة اتخاذ القرار بالحرب وحده،
عقب رحيل دياب بن غانم لحراسة المؤخرة، ذلك أن السلطان حسن استدعاه إثر غزوة
أبلى فيها أبو زيد إلى حد قتل الهصيص، لكن دون مشورة، فجمع السلطان مجلس
المشورة أو الحرب، وواجهه: «لماذا يا أبا زيد تقاتل القوم أنت بنفسك دون أن تخبرني،
ما عدت تركب معنا.»

وأمره بالامتثال للسجن، ووضع قدميه في قيد الحديد بإرادته واختياره.
وبالفعل امتثل أبو زيد للقيد، ووضعه في رجله، واقتعد صيواناً للسلطان حسن
الهلالي.

لكن في صباح اليوم التالي، ما إن دقت طبول الحرب، وعلم الزناتي بغياب أبي زيد،
حتى استشرى في قتال الهلالية.

إلا أن أبا زيد فاجأ الزناتي وقواده بنزوله المعركة، ورد جنودهم منسحبين مدحورين
إلى أربع عشرة مرحلة أو انسحاب، إلى أن دخل الزناتي أبواب المدينة، وأغلقوها من
خلفه، بعد أن خلع أبوابها بحرابه مشرفاً.

اغتيال الخفاجي عامر وابنته دوابة

وكما ذكرنا، فإن الخفاجي عامر شخصية تاريخية، ترد بسماتها مترددة في الكثير من المصادر الكلاسية العربية كأحد الملوك اليمانيين الذين حكموا العراق، وإنه أثر الانضمام إلى ذلك التحالف — القمري — الهلالي لريادة الغرب وفتحها، هو وأبوه الأمير الشيخ ضرغام، وابنته دوابة التي تسمى بها على عادة الآلهة القمرية، أبو دوابة، مثله مثل سالفه حسان اليماني، أبو تدمر التي أصبحت مدناً وحضارات تسمت باسمها — الطوطمي — تدمر، ومثل المهلهل أو الزير سالم أبو ليل وأخيه الأكبر كليب — ملك العرب — أبو اليمامة، وهي بدورها «اليمامة» أصبحت مدناً وحضارات، مثل بقية أبطالنا، أبو وطفة دياب بن غانم، وأبو سعدى الزناتي خليفة ... وهكذا.

وتحفظ مآثرات الشعر الشعبي المصري والعربي الشفاهية، آلافاً مؤلفة من أبيات الشعر الشعبي حول اتخاذ الخفاجي عامر قرار التخلي عن جأه وسلطانه ومصاحبة الهلالية باتخاذ مكانه ومعه قبيلته، بأخذ المكان في الصف — العربي — فاتحاً ومعرباً، منها:

ياما بكى درغام	يوم غرب النجع ^١
واللي بقى صار غام	قال بيض الليالي مضت
وفايت الاصطبل والخيل فيه	رايح تغرب يا أبو دوابة

^١ أحد ألقاب الخفاجي عامر.

ما بكى ضرغام وقال بيض الليالي مضت واللي بقى صار غام
ما بكيت بنته دوابة وقالتلو يا أبا أن شايقة عينك ع السفر حاتزول
ضرغام أبوك كبر وأمك شولة عقلها حايـزول
الغربة تربة يابا تـقل الأصول وتزول

فقال النجع:

بطلي يا دوابة مع الناس دول حانروح
العلام أخويا وصاحبـي بالروح
ومكتوب على باب تونس قايمـة في اللوح
تفنى الخلايق وكل العباد حاتزول

وهكذا اتخذ الخفاجي عامر أو النجع قراره بالانضمام إلى التحالف الهلالي، حتى إذا ما اشتد أوار الحرب بين الهلالية، الذين وصلوا بزحفهم وحصارهم أبواب تونس السبعة، بنفس ما فعله الإغريق مع الطرواديين لذلك الحصار الذي دام عشرة أعوام. ويبدو أن دفة الانتصارات قد تراجعت هذه المرة لصالح الزناتي وقومه أو تحالفه القبلي؛ وذلك أن دياب بن غانم أصبح لا يعتلي المقدمة، بل هو يحرس إمدادات الحرب ومؤنها — البوش — بوادي العباين حيث المؤخرة، وأبو زيد الهلالي يلتزم عقابه طائعا، وإن كانت السيرة تخبرنا في بعض المواقع بأنه كان مصابا أو ملسوعا، كما سيرد في شعر الخفاجي النجع.

ويبدو أن ثقل المنزلة والقيادة تولاهما السلطان الهلالي حسن بنفسه. وأنه اندحر مرات أمام الزناتي خليفة، إلى الحد الذي دفع الخفاجي عامر إلى منازلة الزناتي خليفة، برغم تعرضه للكثير من المفاوضات والمساومة لخروجه من التحالف، والانشقاق عليه، والانضمام للزناتي وقومه، حيث إن الزناتي واصل انتقاماته من الهلالية متجبرا — كما يتضح من شعره التالي — بعد أن خلا الجو بغيا بطلي التحالف الهلالي، دياب وأبي زيد:

يقول أبو سعدى الزناتي خليفة وقلبي عليكم يا هلال حقوق
قتلتم رجال في المجال غضبية وعاد دماهم في البلاد يدوم

قتلتهم أخي الهصيص غدر وبوقه	وهو كان ضد الظالمين عنود
ولى طار سالف من عهود قديمة	طارئ عندكم من زمان جود
والله لأجرد عليكم عساكر	وأحشد عليكم الأنام حشود
وأسر حلايلكم وأخذ أموالكم	وأبدل لطيب عيشكم بنكود
أنا أبو سعدى أنا قاهر العدا	ولي في فعالي يا كرام شهود
شهودي تهودي والقائم صارمي	بيض الدمارى وأخيات جمود
يا أبو علي قوم التقى بلا بطا	وتروح من سيفي طعام اللدود
خمسماية ألف عدة جموعنا	عليهم من الزود المتين بنود
يا أبو على ارحل بصفتك من أرضنا	وفوز بنفسك تبلغ المقصود
ما لك عندي إلا الطعن والقنا	وضرب يشيب هامة المولود
فإن عانني ربي سريعاً أهلكتم	وأعقد عليكم كل يوم عقود
أنا أبو سعدى الزناتي خليفة	هنيئاً لمن خالي عنا وحقود

«أراد السلطان أن يبرز إليه، فمنعوه الأمانة، وقالوا نخاف عليك من الزناتي وأبو زيد ملسوع ودياب غايب، وإن صار لك حادث تروح بني هلال أسراً في الجبال، فقام الخفاجي عامر، وطلب الزناتي فمنعه حسن، وقال: أنت نزيل عندنا والنزول ما له حرب، فقام الخفاجي وأقسم يمين عظيم إن لم ينزل الزناتي يرحل بقومه عن بني هلال، فتركه وثاني يوم دق الزناتي طبله إلى الميدان، فبرز إليه الخفاجي عامر، فالتقوا البطلين كأنهم جبلين وزعق رءوسهم غراب البين، وفي اليوم الثالث كل الزناتي وولى هارباً من قدام الخفاجي، وكان عند الزناتي خطيب يُسمى مطاوع، فقال الزناتي: باكر انزل إليه، وأنا مستخبي بين الزرد، وإن انكسرت قدامه، فيلحقك حتى يفوتني، فأجيله من وراء، وأطعنه من قفاه، وأعدمه الحياة، وأما من الخفاجي فإنه رأى مناماً أن قدام بيته شجرة طويلة، جاها نجار يقطعها، وحفر شلوشها، فقام من منامه مرعوباً، واستدعى دوابة وامراته، قال لهم عن منامه:

يقول الخفاجي والخفاجي عامر	رأيت منام منه عقلي طار
رأيت شجرة ثابتة في وسط دارنا	قطعها سريعاً يوسف النجار
وقدم منشكة وحفر شلوشها	وقطعها بالقادوم والمنشار

وأمس أرسل الزناتي يقول لي
يقول لي يا أمير اترك قتالنا
وعدني بالمال والملك والعطا
فما ردت في هذه العطايا دابة
يخاف أنهم حسبوا حسابي جميعهم
لأن منامي يا دابة راعني
ولكن مهما يفعل الله جائراً
قال المسمى الخفاجي عامر
ردت دابة بنت عامر تقوله
أنا خائفة ذا المنام يعيبنا
نخاف عليك من الزناتي خليفة
له سطوة بالحرب ما شفت مثلها
ما شفت قوم هلال فيما جرى
فاهجم ولا تمنع واقعد وامتد
ما قالت دابة والبكا حيلها

كلاماً أكيداً وضح الأسرار
وبطل عنا جملة الأضرار
يرغبني في معدن وأبهار
وأرمت في قلبي لهيب النار
وقوم الزناتي كلهم مكار
وأرمى في قلبي لهيب النار
الله تعالى واحد قهار
من ذي المنام بقيت كالمختار
اترك خلية لا تزيدن أشرار
ويرمي لنا بالهم والأضرار
لأنه أمير بالملأ غدار
يشبه لسبع الفلا غدار
خلي دماهم على الوطا فوار
يا مصعب للفرقة وبعد الدار
يا حسرتي إن راح عن الدار»

«قال الراوي: فلما فرغت دابة من كلامها وأبوها يسمع نظامها، قال: يا بنتي إذا ركبوا بني هلال ماذا يكون الجواب وأنا حالف يمين إنني أحارب الزناتي عشرة أيام. فقالت له: عمل ضعيف يعذرك بني هلال، دقوا طبولهم، وركبوا خيولهم، وفقدوا الخفاجي عامر فما وجدوه بينهم، فسألوا عنه حسن فقالت الجازية: أنا أروح إليه، فراحت تلاقي دابة قايسة تبكي، فسألته عنه، قالت أصبح مريضاً، فرجعت أخبرتهم، فقال حسن الخفاجي: أقسم يميناً أنه يحارب الزناتي عشرة أيام، وحاربه ثلاثة أيام، بقي عليه سبعة أيام، فكان حاضر أمير اسمه ظريف محب في الخفاجي، فقال: أنا أروح إليه أنظر معانيه. فراح إلى عند الخفاجي، فلما وصل كان نايم، فجلس على حفيلة، وقال له: حول يا خفاجي فحول عن جواده، فسأله عن حاله. فأشار الخفاجي يقول:

قال الخفاجي ولد ديرغام عامر
وحيلي اتخلى عني يا أمير وانقطع

يا ظريف حول تعالى أضيف
وعاد جسمي يا أمير تليف

مرعوب مما نظرتة في منامي
رأيت شجرة طالعة وسط دارنا
جانا يجري وقطع غصونها
وشفت الزناتي راح مني هزيمة
خايف يكون دبر علينا حيلة
فرد المسمى ظريف وقال له
شد واركب الزناتي وصادمه
يا أمير إن العمر من رافع السماء
ما دام لك أجل ما قط تقتل
حياة الفتى موته بظهر جواده
يقتل يكسب الحمد والثنا
انهض ولا تخشى المنايا جميعها

وقد عدت من هذا المنام وجيف
أنا كل عرس تائف وظيف
وأحرقها بمنشاره تحريف
كنت عليه بالطراد جنيف
ومهما تشوره ما به تخليف
ألا يا خفاجي لا تكن مخيف
وأخاف تصبح بين الأنام مخيف
مكمن علينا ليس منه مخيف
ولو كنت نازل وسط بحر مطيف
بيوم يكون الريق فيه نشيف
يبيض لعرضه وثناه نظيف
وإلا غشنا بالذل والتخويف»

«قال الراوي: فلما فرغ ظريف من كلامه والخفاجي يسمع نظامه، فوثب كالأسد،
وشد على جواده، وتقلد بالحرب والجلاد، وسار مع ظريف، فعندما زغردت البنات،
ودقت العماريات، وحين شافه الزناتي أنشد يقول:

يقول الزناتي من فؤادي معمر
أنا الخليفة بالحروب مجرب
ألقى ألوف الخيل ماني خايف
أجول حربي وحين طراي
أبشر بقصر العمر جالك واكد
رد الفتى المسمى خفاجي وقال له
أرسلت لك مكتوب كون صديقي
ما أرد أخون العيش يا أبو سعيد
أولاً أكون الخفاجي عامر
أصبح هزيل في هلال ممسخ
لكن اليوم جيت إلى حربك

نيران قلبي زایدات وقادها
لي سيفاً بالخيل أنا رادها
أبطال تعرفني بيوم طرادها
وتريد في حربي ترى أنكادها
لا بد ما تكن عميق لحالها
نار الحرب أنت قائم بشرارها
وتعطيني تونس وكل جدادها
أخاف ترخص عندنا أسعارها
في جاه صغارها وكبارها
ويكشفون عروضها وصخورها
لا بد أسقيك كأس مرارها»

«فلما فرغ من كلامه التقوا الفارسين في حرب وصدام، وساروا في حرب شديد يفتك زرد الحديد، فانفك عزم الزناتي من شدة حربه، فولى هارب وللنجاة طالب، وحكم ضربه نحو جنابين الورد، وكان الخطيب كان من بين السجاي وماسك الرمح بيده، وإذا بالزناتي والخفاجي لاحقه، فطلع الخطيب طعن الخفاجي بين كتفيه، خرج يلعب من لوحيه، فرماه قتيل، وفي دمه جديل، فغار الفريقين والتحموا الطائفتين، وصاح على رءوسهم غراب بالرمح أصاب الجواد ورماه على الأرض، فرد الزناتي إليه، وخلصه من بين يديه، وركب الجواد، ولا زال بينهم القتال حتى ولى النهار، فانفصلوا عن القتال، وامتلأت الأرض من القتلى، وأخذ الظريف خفاجي عامر إلى بيته ومده، فأشاد يقول:

قالت دوابة دموع من مآقيها	نيران قلبي من يقدر يطفئها
جادت علينا سلمًا من نواتها	وأسقت لعامر شربة من أوانها
فأبكت دوابة دموعها لأجل والد	ها بنت الخفاجي من يقدر تبكيها
يا حيف رحنا ما شفنا منازلها	يا حيف يا بدار العز نخليها
أنا دوابة أبو عامر الماجد	أنشد المكارم وقد شيد مبانيها
قد كان ملك في أرض العراق	له كم كربة من هموم الدهر يجليها
يا رب البين شئت لمومنا	حول الليالي تجهزنا ليالها
حالة مطاوع على شبه مبرشمة	تشبه لريم الفلا السرج محليها
طعنة بحرية طول الليل يسقيها	راح عامر طريح الفراش ساليها
جاله ظريف سريع من فوق سابقه	ضرب مطاوع ضربة جامدة فيها
وأضحى والدي بالعري منطرحًا	أطن عدنا الأرض والشرق تفنيها
من ذا الذي يوصل الأخبار لأهلنا	وعلام عامر ترى من عاد يحميها
ما قالت دوابة ونار القلب مشتعلة	على أنواها وعربيها وتاليها

فلما فرغت من كلامها أفاق أبوها من غدوته، وأشار يقول:

يقول الخفاجي بن درغام عامر	بدمع جرى لا أظن مثله مدامع
نيران قلبي كلما أقول تنطفي	يهب لها جوا ضلوعي لدايع
أنا مثل صقر رابيًا تحت عشه	من المحل جابته بروق اللوامع

نسى وكره لما طلع من بلاده
يبات ويسر طالب الصيد العلا
وإن كان هذا الطير ضيِّع وكره
إذا جفاك الدهر يوم بقربه
ولا تنزل إلا في بلاد رتيبة
وشبانها تنقل السيف مع القنا
وشيوخها ترمي العدا في المهالك
قولوا للطير الذي في بلاده
ما جاك يكسب الحمد والثنا
يا دوابة إن كانت دنت منيتي
وبعد موتي ابعثوا الكتب لأهلنا
ولا أظن خبر يأتيك من بلادي
أبي وأمي كيف ترى حالهم
ولا ولد من بعد مني بقى لهم
وقولوا لهم عظم الله أجركم
أوصيك يا حسن يا هلال
أنت شفوفاً على اليتامى ومحسن
يا أيها الطير الذي طار بالفلا
تأكل ربيع بأرض مصر وزرعها
سلم على أبي وأمي وقل لهم
وأشهد أن الله لا رب غيره

وخلّى في وركه فروخ الجوازع
يمنع حتى ما ترى الوجد جامع
وراح على ذكره مديد آل سايح
أمال عن الأجواد إن كنت ضايح
بلاد العدية حولها السم ناقع
على كل طافح برعب الخيل قارع
بالروح ما هو بالمسهمات القوانع
أيضاً طيور قد تجينا تواجع
تجيني وتأتيني بفعل رواجع
فأوصي ظريفاً يجعل القبر واسع
عسى الخير منهم يجيكم مسارع
بلادي بعيدة سهلها والبقائع
ينتظروا رجوعي ولست براجع
دعوهم بعدي يسكبون المدامع
ولدكم عامر عند ربه مطاوع
دول يتامى ما لهم من مدافع
يعطيك ربك عاليات المواضع
تسعا إلى الدهر الذي بك مطالع
وتبيض بأرض العراق المواضع
يرضوا علينا في صلاة الجوامع
فهو واحد وما له من ينازع

وعلى هذا النحو جاءت مراثية الخفاجي عامر عقب اغتياله غدرًا، وتوصياته لابنته،
إن لم تكن إلهته الأنثى القمرية وكاهنة القبيلة — دوابة — باتساع قبره وبلاغ قومه
فيما بين النهرين بموته وانتهاء منيته، وما أروع شعره! — القومي — حين يقول:

يا أيها الطير الذي طار بالفلا تسعى إلى الدهر الذي بك طالع
تأكل ربيعاً بأرض مصر وزرعها وتبيض بأرض العراق المواضع

ويتضح من مرثية الخفاجي مدى التراكمات الملحمية التي تصنفها العصور، ملحقة ومضيفة، بما يذكرنا بمرثية التبّع حسان اليماني، عقب اغتيال كليب الفلسطيني له داخل مخدعه بدمشق، ومرثية كليب ذاته، عقب اغتيال جساس بن مرة له، وكذا الزير، وبقية شخوص سيرتنا هذه عالية الهامة، السلطان حسن الهلالي، والزناطي خليفة، وأبو زيد الهلالي، وهكذا كسروا على الخفاجي عامر السيوف، واستثنى الزناطي في قتال الهلالية.

أبو زيد يزور الأسرى في زي امرأة

وجاء اغتيال الخفاجي عامر فاتحة لعقد الهلالية المنفرط بموت قادتهم واندحارهم، ذلك أن الدور جاء هذه المرة على القاضي بدير بن فايد، وتبعه الأمير بدر بن غانم، الذي قطع الزناتي خليفة رأسه، وأرسلها وهو ما يزال في الميدان إلى تونس، لتعلق على بواباتها السبع إلى جوار رأس أخيه زيدان «شيخ الشباب»، ثم قتل ولديه الواحد بعد أخيه، نصر وعقل، الذي تشدد الزناتي خليفة بخاصة في قتله، واعدًا كبار فرسانه في تونس بأن من يقتله سيهبه ابنته سعدى زوجة وحليلة، إلى أن قتله الزناتي بنفسه.

وكان أن بكتهما أمهما الأميرة «هولة» بأقوى مراتيها:

تقول فتاة الحي هولا الحزينة	بدمع جرى في الخدود بنار
على ما جرى فينا وقد أصابنا	والفكر والعقل مني طار
على عقل عقلي راح مستقرة	ويا نصر ما لي بعدكم أنصار
ونزلت دموعي كالأنهار الجارية	وجاني البلا قاصد الأفكار
يا دمعتي جودي واجري صباية	على أخوين كانوا كالأقمار
فلو أن نهر النيل بالقلب يجري	وسيحون مع جيحون والأبحار
ونهر الفرات ودجلة والشط كلها	وعاصي وحمى كل نهير دار
على نار قلبي ليس يطفئ لهيبها	وتزيد فيه حرقه وشرار
يا بنتي قومي اندبي طول عمرك	على إخوتك كانوا حماة الدار
فيا طول حزني كلما ذمت بالخيا	أن جاء دياب الحي وسط الدار

بل إن راوي السيرة لا يغفل وصول الإمدادات بالجند والعتاد التي دفع بها تحالف تونس والملوك المغاربة إلى الميدان، لصد جحافل عرب المشرق — الهلالية — وإيقافهم طويلاً في حصارهم خارج بوابات تونس المنيعه، دون أدنى تقدم.

ولم يكن هناك من منفذ أمام التحالف الهلالي بعد إبعاد دياب بن غانم، بحجة حراسة «البوش» والإمدادات والأموال، سوى لجوء أبي زيد إلى الحيلة لاختراق الحصار، خاصة بعد أن رجحت كفة التونسيين في ضرب تلك المؤن واستلابها، وهي الحيلة الحربية التي دبرها الزناتي ذاته مع أحد فرسانه، ويدعى «أبو خريبة» وأنزل بها ضربة قاصية بإمدادات الجند والمهاجرين ومؤنهم، وبالطبع ذخيرتهم.

«حين أمر الزناتي الركوب إلى وادي الغباين، ويحضر البوش منه، فركب من ساعته، وأخذ معه عشرين ألف فارس قروم عوابس، ولم يزلوا ضرب السيف فيهم، فقامت الرعيان بالعياط والصراخ، فلما سمع دياب سائرين حتى وصلوا إلى وادي الغباين، وغاروا على قوم بني هلال، وعلقوا ركب جواده، وطلعت فرسانه وراه، فلما التحمت الحرب بينهم بطعن الأعمار، فعندما قام دياب في عزم وضرب خريبة بالسيف فوقع على الأرض، ولما شافوا قومه أميرهم قتيل ولوا هاربين، فلحقوهم بني زغبة، ومدوا السيف في أعناقهم وأعدموهم أحبابهم وأصحابهم حتى وصلوا إلى عند الزناتي وأخبروه عن قتل أخيه، فاستدعى أخاه الثاني وكان اسمه مكحول، وقال له: خذ قومك وامض إلى دياب بن غانم، خذ ثأرك منه، وانهب بوش بني هلال، ومهما جبت من هؤلاء يكونوا هبة مني إليك، فركب بسائر عسكره مقدار خمسين ألف همام، وغار حتى وصل إلى الوادي، وكان دياب وقومه في الصيد، وما بقي من البوش إلا مقدار ألف فارس، فثارت عليهم الخيل، وساقوا البوش جميعه، فراح لصوت إلى دياب وأعلموه بالخبر، فعندها صار حتى وصل إلى القوم، وبرز إلى مكحول، وغار على قومه، وبدأ يذبح فيهم حتى مقدار عشرة آلاف فارس وهربوا الباقي حتى وصلوا لعند الزناتي وأعلموه بقتل أخيه.»

وهكذا لم يعد أمام الهلالية، سوى الاستنجاد بذكاء أبي زيد وسعة حيلته، خاصة بعد أن أمر الزناتي «بإغلاق بوابات تونس في وجهه»، حين وقف تحت زغلة الباب والأبواب مسكوكه لا أحد يخرج ولا يطلع سوى النسوان التي فوق الأسوار يتفرجون، فعندما صاح في البواب افتح وأرسل مولاك، فسار البواب لعند الزناتي، قال له: قم كلم أبو زيد واقف بالباب يواجهك. فقال الزناتي: يا بواب من يقدر يشوف عزرائيل حتى يقضي روحه، هات المفاتيح التي معك. فعند ذلك أخذ مفاتيح أبواب تونس، وضعها

عنده وخبأها، وقال: اقعد خلف الباب لا تفتح لأحد. فعاد البواب، وأعلم الأمير أبا زيد بالكلام.

«ثم إن الأمير أبو زيد قال لهم: قصدي أعمل حيلة تسوي قبيلة، اندهوا للجازية. ثم إنهم ندهوا إليها، فحضرت بين أيديهم، فالتفت إليها الأمير أبو زيد، فقال لها: مرادي تجمعي مائة بنت من أحسن بنات العرب، وأحضريهن في الليل. فمن ساعتها أحضرت مائة بنت إلى الأمير أبو زيد، فقام ولبس ثياب بيض مثل النسوان، ولبس درعه، واتحزم بسيفه، وسار هو والبنات والجازية نصف الليل، إلى أن وصلوا بوابة تونس، فقال أبو زيد: اقرعي الباب. فنادى البواب: مَنْ يقرع أبواب تونس في هذا الليل؟ فقالت الجازية: نحن من بنات العرب جايين معنا بضائع لكي نبيع ونشتري من عندك على قدر احتياجنا. فقال لها البواب: روحوا ما أفتح لكم الباب في الليل. ثم إنها تدخلت على البواب فما فتح، وإنما راح إلى عند الزناتي وأخبره، فقال: روح إياك تفتح لهم أنا قرأت كتبهم قبل أن حضروا إلى هذه البلاد؛ لأن هذه الحيلة من حيل أبو زيد. ثم إن البواب رجع إلى عند البنات، وأخبرهم بما قال الزناتي، ثم إن الجازية ابتدأت هي والبواب وأشادت تقول: يا بواب صار ه افتح للعداري، حنا مشندر إلى حد السواره.

– روعي يا ظريفة شاورني لنا الخليفة، له حربة رهيقة، تقسم الحجارة.
– يا بواب منصور افتح باب السور، ندخل بدستور ونبيع العطارة.
– المفتاح ما هو بيدي.
– افتح كون طابع جبنالك بضائع، وتحف بدائع، تصلح للأمانة.
– لا أفتح ولا شيء، ولا عقل بلاشي، وإن كنت عطاشى روحوا للبيارة.
– يا بواب افتح الباب مصفح بالزينات، تصفح وتتنظر للعداري، افتح لي شوية، وشوف الحسن فيّه، تجيك رزية، قدشك حمارة.
– روعي يا مليحة أنا أخشى الفضيحة، رأنتني تبقى مستريحة، وأنا أقع بنارة.
– افتح لا تبالي، يا بواب افتح يا حبيبي، وجودك لا تغيبى، ارحم للغريبى كلنا بكاره.

– السلطان حكالي، وقال لا تفتح ولال، ذول بني هلال من قوم مكارة.
– افتح خاب ظنك خلي الهرج عنك.
قال: أخاف أفتح يجينا رجال طالين، يجوا عابرين على ظهر المهارة والأمير غايب، ومن طلب المكاسب يقع في الخسارة.

- افتح يا ابن عمي حتى يزول غمي، حزامي فوق تمي، تارة فوق تارة.
- روجي يا حمامة لا تزيد في الكلام، خائف من سلامة حيلاته كتارة.
- افتح يا أغاني، لا تزيدوا اللغاتي، جملتنا بناتي، ما فينا ذكاره.
- سلامة معاكم سامع لغاتي، هو واقف حداكم مع بنات الأمارة.»

أردت من تقديم النص السالف للتحويلات أو التقمصات لأبي زيد الهلالي والأميرات الهلاليات وعلى رأسهن الجازية، والتحایل على بواب تونس الذي أمره الزناتي خليفة بعدم فتحها ليلاً للمتسللين خاصة، وجحافل بني هلال الغازية أصبحت تطوق أسوار المدينة وبواباتها السبع عبر حصار طويل لا بد وأنه دام سنين، على ذات نسق الحصار الهليني لطرودة المنيع، ما دفع الغزاة في كلا الحصارين الشهيرين إلى اللجوء للحيلة وخداع لحروب.

أردت من تقديم الحوار الشيق بين البواب وعذارى بني هلال الحفاظ على مدى أحاسيسه النسائية الجياشة، حتى ليستشعر القارئ بأنه إزاء إيقاعات الأغاني الشعبية النسائية، وأن مؤلف مثل هذا النص لا بد وأن يكون امرأة أنثى، وهي إحدى السمات الرئيسية لأصالة نص فولكلوري عن خسيسه.

إن النص يوغل في إضفاء الأحاسيس الأنثوية على الحوار بين النساء المتسللات، وبين البواب أو أصحاب المزلاج، إلى حد دعوتهن له إلى الحب والجنس، وهي البنات الصغيرات الحلوات العذارى.

ذلك إذا ما عرفنا أن عمر هذا النص الحواري يربو على الخمسة آلاف عام، منذ النصوص السومرية التي أوضحتها الحفريات الأثرية في العراق وما بين النهرين، خاصة النص أو الترتيلة المصاحبة لولادة إله القمر «شين»، حيث يطلب الإله «أنليل» الذي أصبح فيما تلا من عصور، هو بذاته تموز ثم أدونيس، من الآلهة العذراء ننليل، أي الراعي الذي يقدر المصائر والاتصال — الجنسي — إلا أنها رفضته وصدته عنها:

إن مهبلي صغير لا يعرف الجماع
وشفتي صغيرتان لا تعرفان التقبيل

أبو زيد يزور الأسرى في زي امرأة

إلا أنه يغتصبها فتحبل، وكان أن نُفي من المدينة:

أيها الفاسق اخرج من المدينة

وحين يرضخ الليل، ويرحل إلى جحيم أو هادس أو هاوية سومر، ويدور بينه وبين بواب أو ملاح^١ الجحيم الموكل به، حوار مشابه لحوار الهلالية، مع حارس بوابات تونس، بل إن الليل يمر بسلسلة من التحولات المشابهة لأبي زيد المتخفي بزي امرأة. قال أنليل للحارس الموكل بالبواب:

أيها الحارس يا صاحب القفل
يا صاحب المزلاج، يا صاحب قفل الفضة
لقد جاءتك مليكتك
فإن سألتك فلا تدلها أين أنا.

قالت ننليل لحارس الباب:

يا حارس الباب، يا صاحب القفل
يا صاحب المزلاج
أين سيدك أنليل؟

أجاب أنليل متقمصاً هيئة حارس الباب:

إنه في استي، إنه في فمي
إنه في قلبي الصادق الأمين.

ومن هنا لا يبعد بنا الحوار عن ذلك الذي أجراه أبو زيد والهلالية مع حارس بوابة تونس الذي رفض دخولهم بأمر الزناتي. ويبدو أن الهدف الرئيسي لأبي زيد الهلالي المتنكر وسط جوقة نساء بني هلال، لم يكن قاصراً على مجرد التسلل المتنكر إلى داخل بوابات تونس، بل هو كان التلصص أو

^١ مثل كارون أو شارون ملامح المعديّة في الميثولوجيا الهلينية.

التجسس لجمع المعلومات من عيون بني هلال وبصاصيهم داخل أكثر أماكن الأعداء اقتراباً وحساسية، أي مخدع الأميرة الوريثة سعدى ابنة الزناتي خليفة ووصيفتها — الهلالية — مي، والأمراء الأسرى الثلاثة، يونس ومرعي ويحيى.

ذلك أنه بينما تخبرنا السيرة برفض البواب الموكل بالبواب فتحه لهم أو لهن، فعاد أبو زيد والجازية والبنات من جديد إلى ربع أو مضارب بني هلال مخفيين.

ذلك أن أخبار مثل هذا الإخفاق بعدم الدخول، تواتر من فوره إلى سعدى وفتيان بني هلال، حتى إن مرعي ضغط على حبيبته سعدى، وحملها على الاتصال هي بنفسها بالهلالية، وإبلاغهم بأهمية التغيير في خططهم الحربية، ورأب الصدع من جديد بين قطبي التحالف — القحطاني اليمني والقيسي، أو السعودي اليوم — وإعادة مصالحة دياب بن غانم، ودفعه إلى المقدمة.

«مرعي قالت له سعدى: لا أبكي الله لك عيناً. فقال لها: يا سعدى، إلى متى الانتظار، وقد طال علينا المطال، وأبوك لا يطلع على محاربة أبي زيد، ولا يفتح الباب؟ فضحكت سعدى، وقالت: أنا أفضُّ هذا المشكل؛ لأن مرعي ما يقتل أبي إلا الأمير دياب؛ لأن بان عندي في الكتب، ولكن سأروح الليلة لعند أبوك، وأدعيه يحجب دياب. فلما دخل الليل، استعدت سعدى على أربعين بنت من بنات الأمانة مثل الأقمار، فلما حضروا أقبلوا ونادتهم، وقالوا: ما تريد؟ فقالت لهم: أريد آخذكم معي، تتفرجوا على بنات بني هلال، والأمير حسن أبو المحابيس الذي عندنا، ونرجع في هذا الليل. فقالوا: سمعاً وألف طاعة. ثم أمرت لهم بأربعين خلعة من خاص الحرير والديباج الملون، وأمرت بأربعين جواداً من خير الجياد، فصاروا يأخذون العقول، وركبت سعدى أمامهم مثل البدر المنير؛ لأنه ما كان يوجد في عصرها أحلى منها، وتقلدت البنات بأفخر السلاح، وساروا حتى وصلوا إلى باب البلد، وقالت للبواب: افتح الباب، إياك تتكلم قدام أحد، أعدك الحياة. فقال لها: يا ستي ما في تعب من فتح الباب إن أردت تروحي أو تعدي، ولكن المفاتيح مع أبيك أخذهم مني. فقالت: أنا لا أحتاج إليهم. وتقدمت للبواب وضربته، انفتح من وقته، وخرجت هي والبنات، وأمرت عبدها الطواشي يقعد على الباب لحين رجوعهم، فقفل الباب، وقعد ينتظرهم إلى الرجوع، فعند ذلك سارت سعدى هي والبنات حتى وصلوا لعند الحارس، فقال: ما هذه الخيل في هذا الليل؟ فقالت له سعدى: ضيوف. فقال: مرحباً بالضيوف. فقالت: أين ملوك الأمير حسن؟ فقال لها: نايم. فقالت له: ادخل عليه، وقل له سعدى بنت الزناتي تريد تواجهك، وترجع بالليل. فقال لها: انتظري وراء الستار.

ودخل لعند جارية اسمها مباركة، وقال لها: اعلمي أن بنت سلطان تونس حضرت
لعندنا، ودخلت وأعلمت مولها حسن. فتعجب حسن من حضورها بالليل، فخرج وقال
لسالم: مالك؟! فأنشد سالم يقول:

يا أسير جانا سرية خطارة	ملوك منتظرين قطارة
يا أمير جانا من بلاد بعيد	وأنا بأمرى يا ملك محتارة
ارتاح قلبي من نظرهم يا ملك	شبهتهم يا أمير شعلة ناراً
ما راعني إلا الخيول ولبسهم	وكلهم يا أبو علي عالمهارة
ولبسهم ديباج بلون واحد	من الذهب فوق الصدور زرارة

«قال الراوي: فلما فرغ العبد من كلامه والأمير حسن يسمع نظامه فرح فرحاً
شديداً ما عليه من مزيد، وقال للعبد: اعزمهم. فراح العبد عزمهم، ونزلهم عن خيولهم،
وربطها ومشى قدامهم، فسلمت سعدى على السلطان، وعرفتته بنفسها وبرفقتها، فسلموا
عليه، وسلم على سعدى ومن معها من الحريم. وأما أم مرعي لاققتها وضمتهما إلى صدرها،
وقالت لها: دخلك مرعي كيف حاله؟ وقبلتها بين عينيها، وسلمت عليها سلام الأحباب،
وأما حسن سلم على سعدى، وصار يبكي ويقول:

يا سعدى بالله كيف أحوالهم	مرعي عدل الروح والرب عالم
وأبو زيد حكا لي عن أحوالهم	وأخبرنا عن أفعالك والظلام
وأنت شفوقة يا صغيرة عليهم	وخلصتهم من جميع الوهايم

وهكذا نجحت سعدى في إيصال الرسالة، الخطة.

هزائم الهلالية وعودة دياب

ويُستشف من سياق نصوص السيرة أن إبعاد دياب بن غانم، ممثل التحالف اليمني القحطاني، عن القيادة والمقدمة للتحالف الهلالي، لم يكن لمجرد حراسة البوش والأموال وعتاد الحرب ومؤنه، بقدر ما هو جاء أشبه بمؤامرة محكمة التدبير من جانب تحالف عرب الشمال القيسيين أو الإسماعيليين من جانب سلطان بني هلال، حسن بن سرحان، وأبو زيد ومن في فلکهما.

ذلك أن الهزائم المتوالية التي أنزلها التونسيون المحاصرين بقيادة الزناتي، بقادتهم وأمرائهم، الخفاجي عامر، والقاضي بدير، وعقل ونصر، وزيدان قد وصلت إلى أربعين رأسًا جزّها الزناتي خليفة، ونصبها فوق أسوار تونس.

ودفعت الهزائم بنساء بني هلال إلى الاستنجاد بالمنقذ دياب بن غانم، فهو بذاته القادر على دحر الزناتي خليفة وجنده، وهو دون سواء المنوط به قتل الزناتي خليفة وفك طوق الحصار المزدوج.

فاندفعت وفود نساء الهلالية إلى حيث مضرب والد دياب الأمير غانم، ورحن يكتبن إلى دياب يستدعيه لأخذ الثأر، دوابة بنت الخفاجي عامر التي جزت شعرها، وأرسلته إلى دياب، ونفس الشيء فعلته ابنته — وكاهنته — وطفا التي تسمى بها — أبا وطفة — فأرسل له والده معددًا ما نزل الهلالية من هزائم الزناتي بهم وأمرائهم.

ثمانين أميرًا من هلال وعامر دعاهم أبو سعدى برمح كعيب

وأنشد مشيراً إلى مشورة سعدى ابنة الزناتي خليفة ذاته، التي تنبأت بأن قاتل والدها الزناتي هو بذاته دياب بن غانم:

وأخرب أبو سعدى جميع مساكننا	وما عاد لنا سامع ومجيب
دائر كما الدولاب وولد غانم	ينادي دياب مين لقا هريب
طارده ثلاثة أيام ثم أربعة	شمس الضحى بعد الدموع تغيب
قتلت جواده طلب الشمس باكر	جاء من قدمته سريع عجيب
ألا يا دياب الخيل أسرع نحونا	واقتل خليفة يا أمير غصيب
قتل خليفة ابن عمك زامل	وأخوك عند ما عاد فيه نصيب

وأرسل غانم بكتابه وشعور النساء وتوسلاتهن لدياب، حيث مكانه في المؤخرة، في وادي الغباين أو المغبونين أو المنفيين، وما إن تسلّم دياب الرسالة وقراها، حتى رد الرسول سائلاً: «وأين مكاتب السلطان حسن وأبو زيد؟» ولم يجب الرسول.

هنا رد دياب الرسول قائلاً: «جئت هذا المكان برأيهما، فكيف أرجع بشورة النساء؟» حتى إذا ما عاد الرسول، من وادي الغباين إلى حيث مضارب بني هلال، وأبلغ والده والنساء برفضه وحاجته إلى أمر أو تكليف من قادة الشورى، أحاطت النساء بمقر السلطان حسن وأبي زيد في شبه مظاهرة أو تمرد.

ورغم ذلك فقد رفضا بدورهم الكتابة إليه بالعودة والإغاثة. لكنهما من جديد دفعا والده الشيخ، بل وأمه والبنات إلى التوجه إليه ومناشدته العودة بدلاً من التراجع — عن قرارها السابق — وطلبه مباشرة للغوث والنجاة. فهجته أمه:

ضيعت حتى والدك وسفحت قولي يا قليل الحشائم

وخاطبه والده مستنجداً بوطفا ابنته:

وطفا لها مكتوب كتبه بخطها تقول الوحا قبل الحريم ما تسيب

على هذا النحو أحاطت النساء الثكالى والأبوان الشيخان يستنجدون بدياب الخيال
العودة لنصرة القبيلة قبل أن — تسبب — أو تفجر أو تُسبى حريمها في وجوده، وهو
حامي المحصنات.

إلا أن ما حرَّ في نفس دياب بحسب شعره التالي عدم تلقيه أمرًا بالعودة من
السلطان وأبي زيد، برغم ما حل بالجميع من اندحار وقتل في غيابه.

على ما قال أبو موسى دياب	شربنا الخمر في صافي القداحي
وكم ندل أتى وقت المعارك	يبقى هاربًا يطلب رواحي
أسألك يا إلهي أكون طيرًا	عقابًا كي أخفق بالجنح
أطير بهمتي وأنزل سريعًا	وأعدي بين مشتبك الرماحي
لأخذ الثأر عن خالي بدير	وبدر وأخوه زيدان الرباحي
وما مفعّل الزناتي بالأمانة	فطار العقل من نايم وصاحي
إني معذور يا أُمّي حقيقة	دعيه يقول في عرضي قباحي
غداً أرضيه في قتل الزناتي	وأبدل حزنكم بالانشراح
قولي الهلال النصر جاهم	نهار الأحد أعزم الراحي

«قال الراوي: فلما فرغ دياب كلامه وأمه تسمع نظامه فرحت، وقالت: يا غانم،
مرادنا نسير؛ لأن بني هلال في انتظار. فقال: تأهبوا حتى نسير، وتعلم بني هلال أن
دياب يحضر يوم الأحد عندهم. فركبوا وساروا حتى وصلوا إلى بني هلال، فطلعوا
الجميع ملاقاتهم، فكانت ضجة قوية، فنظروا غانم وحرمته وحده، فقالوا: أين دياب؟
فقال غانم: أبشروا بالغنيمة يا بني هلال، نهار الأحد يصل إلى عندهم، وأما دياب بعد
ما راحوا والديه من عنده أمر الرعيان بلم البوش من كل جانب ومكان، وساروا الجميع
قدامه، وسار طالب بني هلال وفرسانه الذين معه قلعوا الصوان، وأمر العكام بسيفه
وبنصبه على أبواب تونس في نصف الميدان، ودق طبول ونشر أعلامه، وسار حتى بقي
بينه وبين هلال يوم كامل، وكانوا جميعهم في انتظاره.»

«وثاني يوم الأحد خرجوا الأربع تسعينات ألوف وتابعيهم، ولاقوه وما فضل
من هلال لا كبير ولا صغير، حتى طلع ملتقى الأمير دياب وخرجوا بالطبول والنوبات
السلطانية، وزالت عنهم الهموم بقدم دياب، وأدخلوه إلى الحي بنوبة سلطانية عظيمة.»

«وأما أهل القتل، فإنهم اجتمعوا على التراب، وهم في الواد وأثواب الحداد لكي يشكوا إلى دياب ما فعل الزناتي بهم.»

«أما حسن وأبو زيد ظلوا في الصيوان ما خرجوا إلى الخيام، وأما دياب لما وجد حسن وأبو زيد عرف المضمون، وإنما أخدم الكمد، وأظهر الصبر والجلد، ولم يزل سائرًا في الموكب العظيم حتى وصل إلى أبواب تونس، فرجت منه تلك الأرض في طولها والعرض، وطلعت الحريم على الأسوار للفرجة على الزينة، وارتعدت من الزناتي خليفة، ومن عنده القلوب، وانحلت المفاصل وقال: الله يعينا على حربه. وأما دياب رفع رأسه إلى سور تونس، فوجد رءوس الأمانة ثمانين رأس مشكوكين على الرماح، فسأل: من يكونوا هؤلاء، فقال له عمه عرنديس: هؤلاء رءوس بني هلال الذين قتلهم الزناتي وهم أولاد عمك، فقال: كل هذا جرى في غيابي! وظل سائرًا إلى التربة، فلاقوه أهل القتل والبنات، وشالوا البراقع، وحذفوها إلى دياب، فطيب خاطرهم وأنشد يقول:

فارس الهيجاء وخيال الوعر
مفرج الكربات في يوم العسر
مشبع الجيعان (الجوعان) زاكي منتشر
والزناتي حل في عمره قصر
وجميع قومه من حسامي انبهر
وأعلموني بحقائق تسكر
وشعوركن على الكتاف ينتشر
وقبل هذا اليوم كانت تتستر
من هذا الذي من تحته انطعن
كم ربيع هدموه وصبح مندثر
يا نحيف وجهه بعد نور ينفطر
فيما مضى لحدين بولاد أُنذكر
من هد إليهم يا عذارى انحدر
افرحوا اليوم يا بنات وأبشروا
خاطركم المكسور مني ينجبر»

قال أبو موسى دياب المفتخر
حامي الزينات سور المحصنات
منبه الخطار في من الفلا
زال عنكم همكم يا ذا البنات
وأخذ الثأر من أبو سعدى حقيقي
وأخبروني يا بنات بما جرى
ما لكم على القبور جوانس
كم من أميرة شقت ثوب الحيا
لمن هذا القبر يا بنت الكرام
هل أبو زيد والأمير حسن
ألا بدير العامر خالنا
فأبشروا بالنار أنتم يا بنات
أنا عليهم مثل سبع كاسر
وانظروا فعل دياب يا بنات
بعون من أمره علينا قد قُدر

ويذكر أن دياب بن غانم كان يلعب طفلة صغيرة، وهو غائب الفكر كالتائه المأخوذ في الكيفية التي سيقتل بها الزناتي خليفة اسمها «نجيبة» ملاعباً سائلاً، وهو يقبلها في شره: «أين أطعن الزناتي؟»
فقلت له: «في عينه.»
فقال: «مبارك قولك يا صغيرة، لن أطعنه إلا في عينه.»
وقد كان.

عشق سعدى لمرعي وخيانتها لقبيلتها ... وطنها

ويبدو أن فتیان بنی هلال الثلاثة المأسورین داخل السجن المحقق بقصر سعدی ابنة الزناتی، والذین كانوا على مقربة أكثر مما يحدث، سواء على جبهة القتال، أو داخل أروقة القصر الحاكم في تونس، وما يعتمل داخله من مؤامرات على عادة القصور المحاصرة بالرماح واللهب، مضافاً إليه بالطبع مؤامرات المضاجع من مؤامرات يكيدها العلام ابن أخي الزناتي والطامع في عرش تونس وقلاعها الأربع عشرة حتى الأندلس. لذا لم يوفر العلام مكيدة في سبيل الحصول على مبتغاه في وراثة حكم قرطاج، التي صمدت ذات يوم في مواجهة الزحف الإمبراطوري الروماني، وعليه فقد دأب العلام على وضع العراقيل في طريق سعدی ابنة الزناتي، لاقتناصها والزواج منها ووراثة حكم تونس، إلا أن سعدی التي ولدت على كره العلام والنفاز لأطماعه الدفينة التي هدفها بالطبع العرش المتوارث عن طريق الابنة — الأنثى — في ذلك المجتمع القبلي الأموي الذي ما يزال يقدس الخال إلى أيامنا.

ومن هنا وجدت سعدی مهربها في حب مرعي الأمير المتسلل عدو بلادها الطامع، والسبب — السياسي — الظاهري الذي يسوقه الغزاة الهلاليون لغرض هذا الحصار بالحرب على تونس بحجة الإفراج عن أسراهم الأمراء الثلاثة.

فيبدو أن الأمراء الهلاليين الثلاثة كانوا أكثر إدراكاً بصائب بصيرتهم أن سبب هزائم قومهم وقبائلهم الهلالية، هو الانقسام على جبهة القتال وليس غيره، ذلك التصدع الذي نزل بقطبي التحالف بين عرب الجنوب اليمني، والشمال القيسي، ممثلاً في الصراع الناشب بين أبي زيد والسلطان من جانب، ودياب بن غانم من جانب مقابل، مما دفع إلى إبعاده لحراسة — البوش — بدلاً من قيادة المقدمة.

إنه الصراع الدفين المفضي إلى كل الانقسامات والهزائم، والذي لم تبرأ منه سيرة شعبية عربية، خاصة سيرة الأميرة ذات الهمة، والتي تؤرخ للحروب الإسلامية البيزنطية، والانقسامات على جبهة القتال بين كل من عرب شمال وجنوب الجزيرة العربية، مما دفع بالأمير الشاب الأسير مرعي، ويونس ويحيى للتوسل إلى سعدى، وإرسالها سرًا إلى حيث مضارب بني هلال، والإشارة عليهم بأن قاتل أبيها الزناتي خليفة — القدري أو السحري — ما هو سوى دياب بن غانم.

وبالطبع فإن السبب الدافع إلى مثل هذا التصور الغيبي السحري الذي تسوقه السيرة، مرجعه إلى أن سعدى بدورها، كانت أقرب إلى كاهنة — قمرية — لها دورها المتحقق في المشاركة والشورى السياسية والحربية، أما السبب الأقرب فهو يتمثل في قربها من أبيها الزناتي خليفة، والمعرفة بهواجسه التي مؤداها أن قاتله لا بد وأن يكون على شاكلته: عربيًا جنوبيًا قحطانيًا ... ولا بد وأن يكون في هذه الحالة «دياب بن غانم». فكلاهما يماني قحطاني.

ومن هنا جاءت المخاطرة الكبرى لسعدى ابنته لتقف في صف أعداء بلادها ضد أبيها الزناتي.

وهي تيمة أو فكرة رئيسية في فولكلورنا العربي السامي بخاصة، والعالمي بعامة للابنة خائنة أبيها، وبالتالي قبيلتها، واستطرادًا وطنها وحماها، ومن هنا حق قتلها ولو من جانب حبيبها ذاته.

ففي السيرة المهشمة «الملك معروف ووزيره البين وابنه الشاطر حجازي»^١ تساعد ابنة البين مغتصب عرش الشاطر حجازي عقب موت والده الملك معروف، حبيبها السجين في أن تسرق له سيف أبيها البين — المحجب — الذي يقتل إلا به، على أن يتزوجها عقب خروجه من سجن أبيها، وقتله واسترداد عرشه.

وبالفعل يعدها الشاطر حجازي بهذا، لكن ما إن يحقق انتصاره بقتل والدها البين، حتى يقبض عليها، ويقتلها حرقًا، ويذري رمادها في الهواء مع أبيها رمز الشر والشؤم، بدلًا من الزواج بها، على اعتبار أنها خائنة أبيها وبالتالي قبيلتها، ومن هنا حق عليها العقاب بالموت حتى ولو من جانب حبيبها أو عشيقها.

^١ موسوعة الفولكلور والأساطير الغربية: دار العودة بيروت ٨٢ شوقي عبد الحكيم ص ٦٢٠.

وهو ذات المصير — التراجيدي — الذي سيصادف هذه الابنة المحبة سعدى ابنة الزناتي خليفة، من جانب دياب بن غانم قاتل أبيها المنتصر.
فلقد وصل الأمر بالنسبة لتعلق سعدى بمرعي وتعشقها له إلى حد أنها وجهت أبيها الزناتي خليفة إلى التمسك والاستمرار بسجن الأمراء الأسرى، ومنهم حبيبها مرعي، وعدم الإفراج عنهم، وإرجاعهم إلى قومهم، وإنهاء الحصار والحرب، حين أشار عليه ذات مرة أبو زيد الهلالي وكتبه بشأن الإفراج عن الأمراء الثلاثة الأسرى وإنهاء الحرب، كما تروي السيرة شعراً:

خليفة تبعت الكلام تقول لي	هذا كلامك زور مع بهتان
إن كان ما قلته صدق مؤكد	أطلق لنا أولادنا من الآن
هذا مرادنا منك يا ملك	ونأمنكم من حرب عود الزان
فلو تزرع الحوادث يا ولد صالح	حصدت بداله أربع وثمان

وما إن تسلم الزناتي رسالة أبي زيد حتى قال: «أحضر الأرباب»^٢، بما يشير إلى رغبته في استشارة الأرباب من أصنام طواطم، بالطبع في رد الأسرى وإنهاء الحرب.
فبعث الزناتي إلى ابنته سعدى، وقال لها: «أطلقني المحابيس حتى ترسلهم إلى أهلها». فلما وصل الخبر أتت سعدى إلى عند أبيها، وقالت: «يا حيف أبي! أنت صدقت كلام العرب، هؤلاء العرب ما بقوا يفارقوا هذه البلاد.» فقال لها: «والله لقد صدقتي لوعد منا الحياة ما عدنا نرسلهم.» وكان تلك الساعة مرعي عندها:

تقول سعدى بنت أمير تونس	وجرح الهوى قد علقني حبايله
جرحني الهوى في قلب أهانني	ومشعل نار الجد أشعل فتايله
أنا ما ضناني غير مرعي وذلني	فيا رب تجمع شملنا وأوصله
طوله يشابه للرديني إذا مشى	متى تسمح الأيام وانظر حمايله
أنا خائفة يطلقكم وترحلوا	لأن سلامة كل يوم يزعله
فإن كان يرسلكم تروحوا لأهلكم	وينظر لكم حسن ويشفي نحايه

^٢ أحضر الأرباب، السيرة ص ٢٢٦.

أنا خائفة يا بطل حربنا مع قومكم يفرح بمرعي حين ينظر حمايله
ما قالت سعدى للهوى قد صابني على حب مرعي في فؤادي عمايله

«قال الراوي: فلما فرغت سعدى من كلامها، أنشد مرعي يجاوبها:

يقول الفتى مرعي بعين وجيعة	لها بين نور الهاجعين دراف
لأن حبك يا مليحة ذابني	وجاني هواك والغرام صداد
ولكن أبوك يا مليحة أهانني	بالحبس صرنا موجوعين ضعاف
وإن كان يطلقنا فلا يمنعه	حتى نروح لأهلنا وسلاف
وأخبر حسن بما فعلتبه معنا	أبوك بين الملا عراف
ويرسل إلينا أبوك نخطبك منه	ونعطيك خيلاً مع أموال ظراف
هذا مرادي يا مليحة ومنيتي	نريد الحلال وما نريد خلاف
وأما الخنا فليس فيه تطابق	لأنني أنا من نسل قوم شراف
ولا بد نملك أرضكم وبلادكم	وأخذك حقاً بغير خلاف
فلا نحمل إلا عزاً وغاية المنا	يداركنا الرحمن بغير خلاف»

«فلما فرغ مرعي من كلامه لسعدى فبقوا على ما كانوا عليه أولاً في النهار تنزل إلى الحبس وفي الليل تجيبه إلى عندها وتنام وإياه، أما ما كان من بني هلال لقوا أولادهم ما طلوعوا إلى الحبس قام أبو زيد، ودق طبوله، ونزل إلى الميدان.»

وهكذا يتضح من نص السيرة السابق. مدى تعشق سعدى لمرعي إلى حد إخراجه من السجن ليلاً، وإيداعه فيه نهاراً.

بل إن اتهام الزناتي خليفة لابنته وصل إلى حد وصفها بالباغية التي يحق قتلها، وتحميلها ذلك الخطر الرابض بعودة دياب بن غانم، قاتله القدري الذي أصبح يدق أبوابه متحدياً.

وعلى هذا النحو تذكر السيرة «إن كل منية لها أسباب، ومنية الزناتي بيد دياب.»^٣

وهكذا استعرت الحرب ضارية هذه المرة بين الزناتي خليفة، ودياب وقومه إلى حد أنهك الزناتي، ودفع به الشكوى لابنته سعدى.

^٣ السيرة ٢٦٩.

دياب يقتل الزناتي ويسبي سعدى ويحكم الغرب

ويبدو أن سعدى ابنة الزناتي تونس تدخلت في مجرى الحصار والقتال المستمر على بوابات تونس، إلى حد الاتصال ببني هلال في العن هذه المرة، خاصة في مركز السلطة الجديدة التي رجحت كفتها إلى جانب اليمينيين في مواجهة القيسيين — السلطان وأبي زيد — ومركزها هنا القائد المنقذ دياب بن غانم، فراحت سعدى تخاطبه، في اتجاه إيقاف القتال، والعفو عن والدها الزناتي خليفة:

فاعفي عن الزناتي خليفة وخذ ما تشتهي وتريد
خذ ملكنا والرزق كله بساتين تونس قريبها والبعيد

ولما لم تجد آذاناً صاغية من جانب دياب المتسلط في الانتقام والثأر، راحت تلهب الزناتي والدها للخروج له وحربه محرصة، والزناتي يجيبها:

أيا سعدى حربة دياب بن غانم تغنى بها الشعراء نغم قصيد
أيا سعدى حربة دياب بن غانم كم راح منها ابن ست وسيد

وهكذا تجددت الحروب والصدام بين دياب والزناتي.

وهكذا حرّم دياب بن غانم — كالزير سالم في حرب البسوس الانتقامية — حرّم دياب مجاعة النساء حتى ينتهي من قتل الزناتي واقتحام تونس وسبيلها.

وإن كان ما أشفي غليلي منك يحرم عليّ وصال البيض ملاح
قال أبو موسى دياب بن غانم أنا لا مهزار ولا مدعي ملاح

وبادره الزناتي بدوره بأحقاده: «في القلب منك يا دياب نيران.» حتى إذا ما طالبه الزناتي بالتفاوض لإيقاف القتال الضاري والصلح، جاء دور كاهنة بني هلال التي لها ثلث الشورى «الجازية» محرّضة:

تريد صلحًا بعد تسعين أميرًا حريمهم عليهم قايمين العدايد

بل وصل الأمر بالزناتي خليفة إلى حد مناشدته الصلح الذي لا يبعد كثيرًا عن الاستسلام:

فاصفح عن حربي وخذ ما تريد أموال خذ مني وكل جناس
أعطيك القيروان وقابس تونس وقابس ودير مكناس^١

حتى إذا استنجد الزناتي بابنته سعدى مستشيرًا متخطبًا، حثته من فورها على مواصلة القتال حيث لا مهرب.

ويبدو أن الزناتي خليفة حقق بالفعل في تلك الواقعة انتصارًا على دياب إلى حد إيقاعه وقتل الخضرا فرس دياب، «التي حزن عليها أشق الأحزان، وأمر بغسلها وتكفينها بشقق الحرير، ثم يدفنونها في مهابة، وبنى على قبرها قبة عظيمة، وذبح على قبرها ألف ناقة فرقها على الفقراء.»

«لكن أيقن بنو هلال عندئذ بأن دياب لن ينسى أبدًا ثأر الخضرا فرسته، وأن راية الزناتي قد اقتربت بالنصر، وبالفعل فركب دياب ابنها ونازله الزناتي إلى أن هرب الزناتي، فقام دياب بإطلاق الرمح؛ لأن الزناتي كان هاربًا، فالتفت لكي ينظر إلى

^١ أي العاصمة المغربية فاس.

دياب، فأصاب الرمح عينه وعدة «ومرقت» الحربة من قفاه، فتذكر الأمير دياب وقت قول ابنته نجيبة حين قالت له: «اطعنه بعينه»، فمال أبو سعدى عن الجواد، وعول على الوقوع، فسلب «فسل» دياب على رأس السنان، وعاد هو ورجال بني هلال على قوم الزناتي، فبدلوا أفراحهم بالكد، فلما شافوا الزناتي على الأرض مطروح، كثرت عليهم المصائب والأهوال، ما عادوا يعرفون اليمين من الشمال، فولوا هاربين، وأما قرايب الزناتي وقومهم دخلوا وصاحوا الأمان، ودخلوا واقعين على دياب، ورموا سلاحهم، وسلموا أرواحهم، وطلبوا الأمان، وأولهم كان العلامة، وطلبوا من دياب مكان يقيموا فيه، ويلجئون حريمهم، فأعطاهم مدينة الأندلس وما حولها..

«ورحل العلامة وقومه الحريم والعيال، وقطنوا بذلك المكان، ورجع الأمير حسن والأمير أبو زيد وبنو هلال نحو تونس لينظروا كيف قتل..»

«أما دياب ملك تونس، وبالحال نادى عبده خليل، وأعطاه الرمح، وأمره أن يوضعه فوق تونس، وينادي باسم الأمير دياب، وكل من لا يدخل تحته يقتل، ففعل كما أمره مولاه، وصار ينادي بندا، فسُرت سعدى بقتل أبيها، ولبست أفخر ملبوس، وصارت تتبختر كأنها العروس، حتى أتت إلى عند الأمير مرعي وهو يتمشى بجناين القصر عند العصر وهو لابس الملابس الحرير، وهو على رأسه طربوش مغربي، حسب عادات أهل الغرب، ثم دخلت عليه سعدى، وقبّلت يديه، وقالت له: اعلم أيها الأمير الخطير، قد جاء الفرّج بعد التعسير. وتعهدت وإياه ألا يأخذ غيرها من النساء، وعده أيضاً ألا تأخذ غيره من الرجال ولو قطعت بالسيف..»

على هذا النحو البديع يجيء سرد السيرة للكيفية التي اغتال بها دياب الزناتي في عينيه كمثل طالوت مع جالوت.

ثم كيف انتهت المفاوضات بينه وبين قائد التحالف التونسي المغربي العلامة الذي أثر الفرار عن تونس هو وقومه إلى الأندلس ورحلوا إليها.

وكذا الكيفية التي تملك بها دياب لكل السلطة بوضعه رمحه أمام ديوانه، لينحني تحته كل داخل إليه، أخذاً مكان الزناتي، مرتدياً تاجه المتوارث منذ أيام مهران خليفة كما تصفه السيرة، وذلك بعد أن «علّق رأس الزناتي على أسوار تونس، وحرّم دفن جثمانه طارحاً إياه في العراء، لنتهشه جوارح الطير، وأمر بتنزيل أمارة أمراء بني هلال ليدفنونهم، وتملك دياب تحت الزناتي وحلال الملك والمال والنوال والخدم قدامه، وأمر بإطلاق مرعي

ويحيى ويونس، وخلع عليهم، وأرسلهم لعند أهلهم، وجلس دياب على تخت الزناتي، ولبس التاج، وهذا التاج مصنوع من قديم الزمان من أيام مهران خليفة، ومرصع كله بالمرجان الأحمر والياقوت الأخضر، ومنسوج بالدر والجوهر والذهب الأصفر، واجتمعت حوله بنو زغبة صُفّوا صفوف مئآت وألوف وأتوا الجميع حبواً، قَبَلُوا يده، فلما سمعت سعدى بجلوس دياب على كرسي أبيها خافت وارتعدت فرائسها، وخاب ظنها بمرعي، وندمت حيث لا ينفعها الندم، وتوجهت لعند الأمير دياب، وحبَّت يداها، وترجته في دفن أبيها، فقبل طلبها دياب أن يدفنوا أبوها بين قبور إخوته بدر وزيدان وطيب بخاطرها، وأدخلها بين حريمه، فأكرموها غاية الإكرام. هذا ما جرى إلى دياب، وأما ما جرى إلى حسن وأبو زيد وهم راجعين إلى تونس سبق منهم ناس، وشاهدوا رماح دياب، والمناادي ينادي اسم دياب والعبد خليل حين رأى الأمير حسن أو الأمير أبو زيد مقبلين، ارتعد نداءه، ورجع شاور مولاه، فقال له دياب: «ارجع ونادي كما أمرتك.» فرجع العبد وصار ينادي ألا سلطان إلا دياب، وكل من لا يدخل تحت رمحه يعدمه الحياة، فحين سمع حسن هذا الكلام، قال: «كيف الرأي يا أبو زيد؟ ندخل أم لا؟» فقال أبو زيد: «هينة يا حسن ندخل، وإن شال الرمح.» فكان عبد الأمير حسن وراه ضربه بالرمح قطعه نصفين، فضربه العبد خليل قطعه كما قطع الرمح، وأما حسن هجم على ديوان الزناتي، فوجد دياب جالس على التخت، وحوله أكابر بني زغبة، والخدم والعبيد بين يديه، والتاج على رأسه، فلما نظروا حسن، هجم مثل الجمل الهايج، وقال: «ما هذه السعادة يا دياب؟ أما كفاك مرقتي من تحت رمحك، وتلبس التاج على رأسك، وتريد تورثني، وتعزلني من منصبي ورثة جدي وأبي، ونحن من الذي قصر منا عن حرب الزناتي، لا بد عن قتلك يا نحس بعد هذا العمل.» وانحدف على دياب فوق أبي زيد، والرجال بوجه حسن وقبلوا أياديها، بل إن أبا زيد أكرمه:

تريد قتل دياب يا أبا علي	هو حامي طعننا من كل هائش
لأنه جعل رمحه على باب تونس	فهذا ما هو ذنب يا أمير طائش
حريمنا بعثوا براقيعهم لدياب	ليدعي أبو سعدى بدمه بشالش
جانا على خضرة جندل عدواناً	وأخذ بتأرنا في ماضيات الطرايش

دياب يقتل الزناتي ويسبي سعدى ويحكم الغرب

وحين بدءوا بتقسيم تونس وتوابعها ساومهم دياب من فوره على موت فرسته
الخضرا:

وقد راحت الخضرا وشطبها إلينا	من طوى عمري العدا أصونها
وجاءوني بنو هلال وعامر	وجاءوا إلى الخضرا يكفنونها
حفرت لها في الأرض قامة ومثلها	خايف وحوش البر ينهشونها
إن مت والله ادفنوني جنبها في	وسط روضة موضع أن دفنتونها
عسى نلتقي بيوم القيامة جميعًا	وأقبل الخضرا وأمسح عيونها

فاعتذر له الأمير حسن، وقال: «الخضرا خذ عوضها مدينة تونس من غير حساب،
وأقسّم لك ثلث الغرب الذي تريده، وأنا مثلك وأبو زيد مثلي.» فحضرها جميعًا الديوان
تقاسموا الجميع.

ولا تغفل السيرة بعد تقسيم الهلالية الملك المستباح كيفية تصرف قوم الزناتي الذين
يحكمون سبعة تخوت بلاد الغرب، أو المغرب العربي عبر أربع عشرة قلعة، وتقبلهم
لخبر مقتل قائد تحالفهم الزناتي، وهرب العلام بقومه إلى الأندلس.

فاجتمعوا إلى ملكهم المسمى بالملك الناصر شقيق الزناتي خليفة، ومن فوره أرسل
لخاله العلام في الأندلس الذي رفض في البداية الاشتراك في الحرب القادمة، سوى المساعدة
بالمال والعتاد.

ولم يمضِ طويل وقت حتى تجددت الحرب بين الهلالية وعرب المغرب أخذًا بثأر
الزناتي خليفة، وتحرير البلاد.

دكتاتورية دياب وأسر سعدى

وكما رأينا، فإن بذور الشقاق بين اليمنيين الجنوبيين والقيسيين الشماليين، أو بين دياب الذي ساوم، وفاز بالباع الأكبر، وبين السلطان حسن بن سرحان وأبي زيد، أطلت برأسها من جديد في مواجهة تقسيم تونس والمغرب.

بل إن دياب ساوم في اقتسام البلاد المفتوحة، حتى على جثة فرسه الخضراء، فأخذ عوضاً عنها تونس، ومن هنا لم يتبق له ما يساوم عليه، بعد أن أخذ مكان الزناتي ابنته سعدى، التي ما إن استتب له الحكم، حتى صادفها داخل قصر أبيها الزناتي تبكي وتنوح لفراق مرعي لها عقب فك دياب لقيود الأسرى الثلاثة، وكان أن راقى في عيني — الزناتي الجديد — دياب، فحاول التقرب منها ولو بالزواج.

إلا أن سعدى أبعدته عنها وعن محاولة اغتصابها، وهي بنت سلطان تونس:

فإن أخذتني يا أمير تواظري	فإنني أعجل لروحي بشنق حبال
ولا الناس يقولو أخذت عدوها	ولا أنسبك لي يا دياب رجال
ولا أريد الزغبى دياب بن غانم	إلا مقطوع فوق رءوس جبال

وكان أن غضب عليها دياب، ورفض طلبها بدفن أبيها الزناتي، وأمر عبيده بجلدها، وأن يشغلوها بالأشغال الشاقة، تطحن الملح تحت ثياب الخيش الخشنة، وتركها حبيسة مدة عشرة أيام.

وفي اليوم الحادي عشر دخلت عليها نافلة بنت دياب، فلما رأتها عن هذا الحال سألتها عن حالها وما جرى لها، فأخبرتها سعدى عن ظلم الأمير دياب، وكل ما جرى لها، وأشارت سعدى تخبر نافلة تقول:

تقول سعدى بنت سلطان تونس	وتجري دموعي فوق خدي بواير
أبكى أبويا الزناتي خليفة	وعلى قومنا راحوا بحد البواتر
أصيب بحربة من يمين ابن غانم	فحكمت له بين العيون والنواظر
ولما قتل ولت أجاويد قومنا	وراحوا كما الطير في الجو طائر
ودياب يريدني أن أكون له حليلة	ويقتل أبوي فوق خيول ضوامر
فوالله ليس بخاطري أن أقابله	وليست أن أرضاه والرب حاضر
بكيت على دهري الذي خانني	ومن حين ولوا لم جبر لي بخاطر
وياما جرى من بعدك يا خليفة	طحنت الملح مساء وبأكر
ويا من يعزيني على قتل والدي	ويوضع سعدى في لحود المقابر

«وحين سمعها دياب؛ لأنه كان واقف خلف الباب، فأمر غلمانته أن يزيّدوا عليها الأشغال، ففعلوا كما أمر، وبقيت على هذا الحال ١٥ يوم وهي تبكي وتنوح، وكان أكثر بكائها على مرعي؛ لأنه نسيها وما فكر فيها، وكان عندها عبد تعرفه اسمه مرجان من عبيد أبيها، فاستدعته وأشارت تكتب:

تقول فتاة الحي التي خاب ظنها	سعدى التي خانت أبوها وراح
يا غادياً مني على متن ضامر	إذا مشى يسبق هبوب رياح
فحين وصولك للهلالي قل له	يا كامل المعروف والإصلاح
نسيت الصغيرة يا هلالي أبو على	ومعكم ترى ما فعلت قباح
ألا فاذكروا يوماً أتونا أولادهم	إلى الغرب رادوهم برأي الفلاح
فأراد الزناتي أن يشيل رءوسهم	ويريد يخطف منهم الأرواح
تشفعت فيهم ثم راحوا نعمة	ولولاي كانوا غدوا شراح
فأنا ملكتكم بأرض تونس	وخنت أبوي ذاك مات وراح
فقال دياب آخذك حليلة	فأبيت أمره يا حسن وقباح

فأخذني دياب وجعلني في مذلة	وتضربني عبيد في مساء وصباح
وأحمل على ظهري الحطب	أحمل جوار الماء بالأتراح
واليوم أعصم حالتي ابن غانم	يعاملني بالشر كل صباح
رمتوني يا ابن سرحان يا أبا علي	فكيف تجاوزون المليح قباح
تقول فتاة الحي سعدى التي شكت	وفي القلب نيران وهب رياح

وما إن تسلم السلطان الهلالي حسن بن سرحان خطابها، حتى أخذ من فوره أبا زيد، وركبا إلى دياب بن غانم، ليفاتحه في أمر سعدى، وكيف أنها خطيبة الأمير مرعي، إلا أن دياب رفض التخلي عنها، مغيرًا الموضوع إلى المصاعب الجمّة، التي أصبحت تعترض قضية تقسيم المغرب العربي بتخوته السبع، وقلاعه الأربع عشرة حتى الأندلس.

ولم يطل خلافهم طويلاً، حول كيفية إعادة تقسيم البلاد المفتوحة، حتى جاءت الأخبار صادمة.

ذلك أن الملك ناصر شقيق الزناتي، جمع تحت إمرته سلاطين التخوت السبع، وأخذ معه العلام بالحيلة والتهديد لمعرفته بمسالك طرقات تونس والمغرب ومكان ضعف قوات التحالف الهلالي.

وهجموا بأسلوب مفاجئ على ابني أبي زيد ودياب صبره وموسى، ومن ولوهم من أمراء وقواد بني هلال، وعددهم ثمانية فقتلوهم، وأسروا صبره بن أبي زيد، وأخذوهم معهم في الأغلال رهينة.

حين حاول العلام التدخل لفك أسر الأمير صبره بن أبي زيد، عاجله أمير من عرب المغرب، وطعنه في صدره، فأماته بثار الزناتي، واتهموا العلام بالتآمر لحساب الهلالية.

وكان أن تجددت الحرب هذه المرة ضارية، وتمكن الهلالية في الجولات الأولى للحرب من قتل العلام؛ لأنه كانت بينه وبين أبي زيد معاهدات^١ لم يحفظها، وحزن أبو زيد لموته.

^١ السيرة ٢٩١.

وتقدم أبو زيد ببني الزحلان إلى قابس، ودياب ببني زغبة إلى كويج، وواصل أبو زيد ودياب زحفهما:

ملكنا من نجد إلى قاع تونس بطعن يورث العدا عطيبها

فقتل دياب أحد أمراء عرب المغرب، واسمه الأمير «وائل»، واعتلى من فوره عرشه. ثم قتل دياب الملك سليمان، وجلس على كرسي مملكته، وانتهى من تحرير القلاع السبع، وولى عليها وجوه بني زغبة من قبائله اليمنيين وعرب الإمارات. وبدوره واصل أبو زيد زحفه لتحرير نصيبه في حكم المغرب العربي، فافتتح القيروان، واستقبله أهلها بالورود والرياحين والزينات ثم فتح مراكش، إلى أن وصل إلى مكان، تدعوه السيرة «بالأندلس»^٢.

وحين انتهى أبو زيد ودياب من الوصول بفتوحاتهما عبر المغرب العربي، وصولاً إلى شبه جزيرة أيبيريا — أو ما تدعوه السيرة بالأندلس — اجتمع أبو زيد ودياب في بلد تدعى «عين تورز»، وعادا إلى تونس للاجتماع بالسلطان حسن بن سرحان في نجوة بني هلال، وأعادوا من جديد تقسيم «الغرب» أو المغرب العربي بالسوية كما يذكر النص.

إلا أن دياب أصر على أن يأخذ كعده تونس «عوضاً عن موت الخضر» فرسه التي قتلتها الزناتي، خارج القسمة «بالسوية».

وأصبحت القيروان وتوابعها عاصمة للسلطان حسن، أما أبو زيد فاتخذ الأندلس عاصمة له.

^٢ السيرة ٣١٢.

مأساة سعدى ومرعي

وهكذا استتب الأمر للهلالية من عرب قحطانية وقيسية. أو نجدية حكم المغرب العربي وصولاً إلى مداخل أوروبا الجنوبية دون مناوئ. واتساقاً مع ما هو متبع، فما إن هدأ صراع الحرب والنزال، حتى اندلعت حروب القصور، والمضاجع والحريم.

ذلك أن دياب بن غانم ما إن عاد فاتحاً منتصراً إلى حيث مقره تونس، وبالتحديد قرطاج عاصمة ملكه المترامي، ليعيش حياته المترفة داخل حريمه «بعدد شعر الرأس»، حتى بدأ صراعه مع أسيرته سعدى ابنة الزناتي خليفة التي تمكنت بدورها، من أن تصبح عيناً مسلطة داخل حريم دياب لحساب الشق الثاني من التحالف، السلطان حسن وأبي زيد، فهربت من فورها المكاتبات والرسائل للسلطان حسن ومرعي تخبرهما بما أصبحت فيه من ذل وتَجَبُّر دياب وتنكيله بها إلى حد التهديد اليومي بالقتل والتشويه، وهي التي نسيها، وتخلّى عنها الجميع.

لكن ما إن علم السلطان حسن بمدى ظلمها والخطر المحيط بها، حتى بادر من فوره إلى جمع خمسة آلاف فارس، وشدوا الرحال إلى الأندلس للاجتماع بأبي زيد الهلالي، وبلاغه بمعاناة سعدى وتسلب دياب.

وما إن أبلغ السلطان أبو زيد بما حل بسعدى، وهي خطيبة ابنه مرعي، الذي أصبح كالمجنون لا يعرف كيف يتصرف بإزاء جشع دياب وتسلبه، على الأميرة التي أبلت الكثير في مساعدة الهلالية، وترجيح كفة انتصاراتهم في مواجهة قومها وقبيلتها، وما تعرضت له من الامتهان.

بل هي ذاتها سعدى التي خاطرت مخترقة حصار أعداء بلادها، مشيرة عليهم بأهمية عودة دياب بن غانم، فهو وحده المقدر له قتل أبيها الزناتي وفتح تونس.

وهكذا تأهب السلطان حسن وأبو زيد للرحيل «وسارا حتى دخلا إلى تونس المغرب، فلما نظرهما دياب، لاقاهما بالترحيب والإكرام، وأدخلهما القصر، وذبح الذبائح وأقام بضيافتهم ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع قال لهم دياب: لقد شرفتنا بمنازلکم، وكان الواجب أرحل أنا لأول إليکم، وأقدم الواجب علي. فقال حسن: نحن ما أتينا إلا لأمر مهم. ثم أشار يقول:

يقول حسن الهلالي أبو علي	ولي قلب من جود الزمان كواه
ولي عين طول الليل لا تألف الكرا	ودمعي فوق خدي سجاه
يا دياب الخيل اسمع مقالتي	واصغي لقولي وافهم معناه
سعدى بقت عنده وديعة بينما	يروق منا البال نقيم هنا
طلبت منها أن تكون حليلتك	هذا فعال العيب لا ترضاه
وجعلتها عند الجوار لخدمتك	وتطحن لملحك والحطب مياه
عيب ترى هذه الفعال جميعها	وما هي مروءة الرجال تراه
سعدى مرادي أخذها لضعونا	وأزوجها مرعي بأحسن جاه
وهي يتيمة يا دياب بن غانم	أبوها قتلته أنت وسط فلاه

فلما فرغ حسن ودياب يسمع تضايق، لكنه أخفى الكمد، وقال إن سعدى باقية كما هي، وأما قولك: إني طلبت أن أتزوجها، فهذا كذب، فقال حسن: هذا كتاب سعدى اقرأ. فقرأ دياب واغتاض أكثر من الأول وقال: يا حسن هذه سعدى بواقعة وحالته، فالتى تخون أبوها لا يكون فيها خير لأحد، فالواجب إذلالها. فقال: هذه خطيبة مرعي أطلبها. ويبدو أن السلطان ودياب قد وصلا في احتدامهما إلى حد الاشتباك، وذكر دياب للسلطان، كيف يهيئه من أجل فتاة خانت والدها وقبيلتها ويحق بالتالي قتلها. ثم إن دياب اقترح وضع سعدى في مكان بعيد في آخر الميدان المتصدر لقصره، الذي كان قبلاً قصر أبيها الزناتي، ثم يركبون خيولهم بأول الميدان، ويطلقون الأعنة، ومن يصل إلى سعدى تكون ملكه ويأخذها.

«فقال حسن رضيت. ودياب رضي أيضاً، ثم اتفقوا على ذلك، وفي اليوم الثاني أحضروا سعدى إلى الميدان، ووقفوها في آخره، ووقفوا هم في أوله، وأعطوا لبعضهم شارة، فخرجوا كأنهم نشاب، كان دياب راكباً الشها ابنة الخضراء، وكانت أحسن من أمها، فراحت أمام الجميع ومن خلفه الأسمر الآخر على الحصان، وكانت المسافة مقدار

ساعة، فلما وصل إليها، قالت له سعدى: أنا أختك يا دياب. وكان الأسمر علمها أن تقول ذلك، فلما سمع كلامها، عرف المضمون، فشهّر حسامه فجرحها جرحاً بليغاً، فصار به حسن، وقال: ماذا عملت هكذا يا دياب؟ قال: أنتم قلتم إن الذي يسبق إليها تكون ملكه، وهي صارت ملكي، فأتصرف كيف أشاء، وبما أنها خائنة لا أريد أن أبقّيها عندي. ثم نزلوا إلى سعدى، فوجدوا فيها روح، فحملوها وساروا حتى دخلوا القيروان، واجتمعت البنات والنسوان لما عرفوا بقتل سعدى، وكذلك مرعي فإنه مزّق ثيابه، وبتف شعره، وسار كالمجنون، وأما سعدى فإنها فتحت عينيها من حلاوة الروح، وأشارت تودع الدنيا بكلام يفتت الأكباد:

شبيه القمر إن بان تحت غمام
أنا وأبي في لذة وأنعام
ومعه أمانة خيرين كرام
ضربت تحت الرمل والأفهام
وأبو زيد من سهر الليالي نام
وهم صاحبين خناجر وحسام
وأخذوا صوارمهم مع الأغنام
ملك ملوك الأرض كالضرغام
فقالوا نحن شعار نقصد الإكرام
وامضوا بهم إلى المشنقات قوام
ردلوا حبلاً ما كُنات برام
وأنا مثل بدر مستهل تمام
سلب مهجتي والقلب منه هام
وقد هاج بليلى وزاد غرام
وقلت يا أبي لا تكن ظلام
مساكين فقراء كلهم أيتام
لكي يملكوها في قنا وحسام
ومن يأمن الأنثى يروح عدام
وأرخت من فوقه رفيع أكمّام

أنا كنت أسعد الناس كلها
مولعة بالعز والغنى والصبا
فلما أتى أبو زيد للعرب ردها
علمت بهم من قبل أن يأتوا بلادنا
جاءوا إلى سلطان قابوس الضحى
أتوهم عبيد السود وقفوا حولهم
وشدوا أياديهم كتافاً إلى ورا
وقد عرضوهم للزناطي خليفة
نهرهم وقال جيتم تزوروا بلادنا
فقال شلحوهم يا عبيد ثيابهم
ونادى عليهم في شوارع تونس
فطليت من شباك قصري أشوفهم
تعلقت في مرعي لما نظرتة
وقد أصلت نار الغرام بضامري
نهضت أنا من منزلي نحو والدي
فما ذنب شعرا أمرت بقتلهم
فقال جاءوا يزوروا بلادنا
أشرت على أبويا شور أطاعني
لبست من الصندوق ثوباً مذهباً

وفي وسط قصري يا أمير وضعتهم
وقلت لهم لا تحملوهم والنبي
وجبت لهم من كل ما يشتهونه
إذا لف مرعي الشاش من فوق
أشوف وجهه كالللال إذا بدا
مضى وما مضى إلا وأبو زيد عائداً
وعدد تسعين ألف ومثلها
زرعوا أرض تونس والبساتين كلها
قتلتهم أبويا ثم أخذتوا بلادنا
تملكتم تونس وقابس أرضنا
وما نلت من مرعي مناي وبغيتي
يا رب من كان السبب بفراقنا
قد أحرموني لذة العيش والهنا
فلا تلموني الصغيرة إذا بكت
زرعت جميلاً قابلوني بضده
أيا أبا علي قد كان مني تحاكم
فما عاد إلا الموت يا أمير أبو علي
يا أبو علي هات لي مرعي أشوفه
يا ليت أبقى لمرعي خديمة

وأبو زيد قد راح يجيب أغنام
عليكم مني ألف ألف سلام
من اللبس والشاشات والهندام
راحة فيقطع حبلى ما أطيق قيام
وجبهته تضوي كبدر تمام
ومعه جموع مثل فيض غمام
وتسعين في تسعين ألف همام
وابنوا بيوتاً عالية وخيام
قتله الفتى الزغبى أبو غام
ولا تحفظوا لي يا كرام مقام
نسيني ولم يرعى إلي زمام
يقتل وفوق الأرض دمه يعوم
وشملي تفرق ما بقي له لموم
أبكي على أهلي وكل غموم
وكيف من زرع الجميل يضام
وملكتكم عشرين تخت تمام
سأرحل عن الدنيا بغير مرام
وأودعه قبل أن أذوق حمام
وأكبس لرجليه بوقت منام

فما فرغت سعدى من كلامها حتى شهقت وماتت، فقاموا عليها الصياح والنواح،
ثم غسلوها ودفنوها، وصار حسن في قلبه من دياب نار، وأما دياب فإنه طغى في الحكم؛
لأنه ملك في آخر عمره، وكان يبغض على أهل العرب، وهم كلهم يبغضونه، وما عرف
كيف يتصرف بالملك، فأفسد عليه أهل بني زغبة، وصاروا يوشون لهم حتى صاروا
أكثرهم يبغضوه، ولكن ما حد منهم قدر أن يحكي كلمة؛ لأنهم يخافون من بأسه
وسطوته، ودامت الأحقاد بين دياب وحسن وأبو زيد، ولكن في الظاهر كانوا يُظهرون
المحبة والمودة، ويخفوا ما في قلوبهم.»

خلافات بني هلال والهزائم

وعلى هذا النحو برزت الخلافات والأحقاد الدفينة بين قطبي التحالف الهلالي في مواجهة البلاد المفتوحة وأموالها وسباياها، وضاعف من حدة هذه الانقسامات المتفاقمة المهددة استئثار قبائل الزناتي، وعرب المغرب لها طلباً للثأر، مثلما حدث في حرب البسوس التي أذكت نيرانها لمدة أربعين عاماً الكاهنة الملقبة بسعاد أو البسوس أخت التبع اليماني الذي اغتاله «كليب الفلسطيني» في دمشق.

وعليه استطاعت أخت الزناتي خليفة واسمها ست الغرب التنكر في زي شاعرة جواله، أو بصفة شاعر لف، كما تدعوها السيرة، تمدح الأمراء إلى أن وصلت تونس، ودخلت على الأمير دياب بن غانم ديوانه فمدحته، وهنأته على قتله للخليفة الزناتي أعدى أعدائها.

«وعزمته في ضياعها المخصبة الفواحة وقصرها بعين سلوان»
وعندما راق للشاعرة المتنكرة بذور الحسد التي زرعتها فيما بينهم، واصلت تحريضهم لبقية القبائل.
وهكذا قال أبو زيد معرضاً بدياب: «نحن ماسكين البقرة من رأسها، ودياب يحلبها من ذنبها.»

وهكذا تجمعت نوايا الحرب والعدوان بين دياب، والسلطان، وأبي زيد خاصة بعد أن أغار الأخيران على «بستان دياب المزهري، فحطموا شجره، وهدموا قصره، وردموا آباره.»

ونشبت الحرب لفترة محدودة بين السلطان حسن ودياب، إلى أن تمكن أبو زيد من عقد المصالحة بينهما في القيروان، إلا أن السلطان حسن دبر مكيدة لدياب تسوقها السيرة على النحو التالي:

وكان دياب لابس جبة من الحرير الأخضر، وشالح على كتفه برنس أحمر وعلى رأسه عمامة من البرفيل والأرجوان، ثم دخلوا على الأمير حسن، فترحب فيهم غاية الترحيب، وجلس دياب على كرسي من العاج كأنه الذهب الوهاج وقومه من حواليه، ثم أمر الأمير حسن بإحضار القهوة والكأس والشراب، وأحضر مائدة من الطعام مصحوبة بألف فارس ضرغام، أجلسوا على المائدة، وجدوا المناسف مغطاة، فرفع الأمير دياب الغطا عن المنسف، وجده فارغ من الطعام، وفيه قيود من الحديد، فقال الأمير دياب: «ما هذا يا حسن؟» فقالوا: «الواجب أن تتقيدوا إلى السلطان بالإطاعة، ولو ساعة.» فعندها وضع الأمير القيد برجله، وفعلت باقي الأمانة كفعله، وبينما هم كذلك إلا اندفعت فرسان دريد لداخل المكان، وبيدهم الخناجر والسيوف، ومن جرى من ذلك، فصار دياب كالملهوف، فعندها أمر الأمير حسن ب نصب المشانق والحبال، وقال: «اشنق جميع هؤلاء الرجال.» فذبخوا ستين أمير، غانم ودياب والبقية أمر بشنقهم، أما الأمير غانم ودياب كاد تقفز مرارتهم من كثرة الحزن، ولكن ما طلع بيدهم شيء بحيث إنهم مأسورين وخاليين السلاح.

ولما وصل الخبر إلى أبو زيد أتى من الأندلس إلى حسن، فسلم عليه ورحب به غاية الترحيب، ثم سأله أبو زيد ما فعل؟ فقال له الأمير حسن: «ما عملت مع دياب إلا سجنه، فإن كنت قتلت أولاد عمه وأخواته، فإنه قتل أخي وخطيبة مرعي، وجرح مرعي، وجرح قلبي عليهما، فقابلته بمثل ما قابلني، وجرحته قلبه عليهم.» ثم إن الأمير حسن بعث ألف فارس إلى تونس، وأمرهم أن يحضروا له خزانة تونس وسلاح دياب وأثاث بيته، وكل ما في قصر الزناتي يحضروه، فحالا ذهبوا، وأحضروا ما أمرهم به الأمير حسن.

اغتيال دياب للسلطان وأبي زيد

وبسجن دياب وأسرته بالقيروان عند السلطان حسن الهلالي، تحدث بضعة أحداث جانبية؛ منها مقتل الأمير يونس، وحزن بني هلال عليه طويلاً، ومنها حكاية استطراذية تحدث لزوجة أبي زيد عليا، تستدعي منه العودة إلى الجزيرة العربية والوصول إلى نجد لفك أسر زوجته العالية بنت جابر.

أما دياب فحاول جاهداً التوسط لفك السلطان أسره دون جدوى:

تجازيني بالحبس يا سيد الملا وقد صار لي بالحبس سبع أعوام

إلى أن تشفع له أبو زيد لدى السلطان، وساعدته نساء بني هلال في الإفراج عنه. وهكذا أفرج عنه السلطان في موكب مهين لفارس كدياب على هذا النحو الذي تسوقه السيرة:

فناشدونه أولاد الأمانة والشبان الذين لم يسمعو بذكر دياب إلا باللسان، فتشوقوا إلى مشاهدته ولو ساعة، فترجوا السلطان وساعدوهم الأمانة والنسوان، فقبل السلطان حسن رجاهم، وأمر أن يأتوا بدياب مكبلاً بالقيود والحديد، وفي الحال أحضروه بالجنازير، وأمام السلطان أوقفوه، وإذا هو أصفر اللون بهيئة الموتى، فصاروا أولاد الأمانة يضحكون عليه، فقال السلطان حسن: «كيف ترى أمورك الآن بالذل والهوان؟» فقال: «ما دمت راضياً علي.» وبعد مداولة طويلة أراد أن يرجعوه الأمانة إلى السجن، فقال دياب: «أنا شمسية تهزني، ولا قمح تكدني بغربالك، فإن كان الذئب يصفى للغنم أنت تصفا لي، وأنا أصفا لك.» فصاح حسن: «ويلكم، دياب أمسكوه وإلى

السجن ودوه.» فعند ذلك أخذ دياب يرتجف مظهرًا الخوف الشديد، فوقع على الأرض مغشيًا عليه، كمن قارب الموت، فعند ذلك ترجوا الأمارة الأمير، وقالوا له: «إن دياب في حالة نزاع.» فأمر أن يدخلوه دار الحريم لعند أخته نوفلة، وما أتم كلامه إلا وحضرت الرجال، ورفعوا دياب بكل إكرام إلى بيت أخته، فلما نظرتة على هذا الحال، وهو محمول على أيادي الرجال صرخت بالبكاء، وأنّت واشتكت، ومزقت ثيابها، وأخذت تقول:

حرام لقد جاروا بالعادة وبغوا	علينا ونحن بالكروب نسير
لقد كنا في عزتنا بنعمة	وكنا برغد ما عليه عسير
فبينما نقاسي الهم والويل والضنا	وتجري الدموع على الخدود عزيز
وقد كنت يا أمير الأمارة وسيدهم	كسبع الفلا بالماضيات تشير
إذا هاج سوق الحرب كنت أميره	تكري على الأعداء مثل الزير
وتحتك خضرا مثل فرخ نعامه	تدق الثرى في رجالها وتطير
فما كان ظني يا دياب بن غانم	أشوفك بهذا الحال والتأخير
تشال على أيدي الرجال كमित	وتبقى تقاسي الذل والتأخير

«وأسرعت ومدت إلى أخيها فرش من ريش النعام، وأخذت ترش عليه من ماء الجذام، وهو ينتفض ويرتعش، وبقي على هذا الحال ثلاثة أيام، لا يذوق طعامًا ولا يقابل منامًا، وهو يستغنم الفرصة حتى تناصف ليل اليوم الثالث، فدخل على حسن وهو غارق في منامه، فعند ذلك استل الشفرة التي كانت معه في مدة حبسه، وهو يحضرها لمثل هذا الوقت، فانطرح على حسن وذبحه من الوريد، وتركه يتخبط بدمه، وسار يجد السير تحت ظلام الليل، إلى أن وصل إلى قومه وعشيرته، وعند الصباح فرحوا به كثيرًا وانسروا لرؤيته، وأخذوا يسألونه عن قصته، وعن كيفية إطلاقه من سجن حسن، فأخذ يقص عليهم القصة، ويخبرهم كيف صار من البداية للنهاية إلى أن أخبرهم بقتله السلطان، فحزنوا وقالوا: أصبحنا عبرة عند العرب، فسوف يصير بنا كما صار مع جساس بن مرة والأمير كليب، ومن الآن أصبحت عداوة كبيرة بين عشائر بني هلال، وسوف يصلون إلينا، فلنرحل من هذا المكان قبل أن تدركننا جميع بني هلال. فلما سمعوا كلامه وفهموا مرامه، قالوا: إن هذا هو الأمر الأحسن لنا؛ لئلا تدركننا جيوش بني هلال.

فهدموا الأطناب، وأودعوهم ظهور الجمال، وأركبوا النساء والأطفال، وصاروا يجدون بقطع الروابي والبطاح، وما إن عم خبر اغتيال دياب للسلطان حسن بن سرحان، حتى عمت الأحزان القيسيين والعامريين، وما إن وصل الخبر مسامع أبي زيد حتى شق ثيابه، وألقى بشاله، وנתف لحيته، وأهال التراب مع النساء، وبكته أخته الجازية:

عمود ركبتى قد هبط يا نكبتى طول المدى ما أنظر الأفراح

وبكىه:

يا مشبع الجوعان معزي الحزين يا سيد المكروب يا مولى العرب

وما انتهت مراسم الجنازة وشعائر الدفن، ونحر الذبائح، حتى تنادوا في صيوان أبي زيد بالثأر ورفع العار، وبالطبع دقت طبول الحرب الثأرية الانتقامية من جديد، وساروا حتى دخلوا إلى حيث قصر دياب بتونس، فاستقبلهم التونسيون معزين، وأخبروا أبا زيد برحيل دياب وقومه إلى بلاد الأحباش.

فاستقر رأي القيسيين على تعقب دياب، إلا أنهم أجمعوا في النهاية على تنصيب أبي زيد الهلالي سلطاناً على «تونس والمغرب».

بينما رحل دياب بقومه إلى الحبشة إلى أن كان يوم، تذكر فيه أبو زيد صباه وصداقته لدياب وحربهما جنباً إلى جنب، فأرسل يستعطف بخاطره طالباً منه العودة.

وحين علم دياب بعفو أبي زيد عنه استبشر وراسله، كاشفاً له عن حاله، وما ألم به في الحبشة، فحتى نساؤها تحدث عنها دياب باستفاضة:

بنات البدو سود العيون قوامهم	إذا ما مشوا حسبتهم رمح ثقيف
ولكن نسوان الحبش كعجينة	الوجه منه كالحا ونشيف
ترى الواحدة كالفرق منه أشنعاً	قبيحة وخيمة ما بها تنظيف
بأسنان صفر والعيون مفتخرة	لها معصم يابس كحبل الليف
ترخي كرادين لها فوق صدرها	وبالأكل مثل الكلب عند الجيف

«وسار الأمير دياب إلى الملك جوهر، وودعه وركب بقومه ورجاله إلى أن دخلوا بلاد الغرب، فخرج الأمير أبو زيد ولقاهم، وتصالحو ورجعوا إلى الأوطان، وعمل أبو زيد وليمة فاخرة، وذبح الذبائح. وصار الأمير أبو زيد والأمير دياب في محبة زائدة، ولكن أبو زيد لم يرجع للأمير دياب ملكه، وبقي هو الحاكم، فما هان على دياب وسار يقول: متى ترجع لي البلاد التي أخذوها مني؟ وأبو زيد لواطى. فاغتاظ الأمير دياب، وكمن السر لأبو زيد، وقال في نفسه: أنا صنعت دبوس وسكين السين للأمير حسن، فخلصنا من واحد وبقي علينا الآخر. وصار من ذلك الوقت يحمل الدبوس، وكان بسبع فراشات من تحت العباية حتى لا يلحظ عليه أبو زيد، إلى أن كان ذات يوم خرجوا للصيد والقنص، وكان مع الأمير أبو زيد جماعة من قومه، ومع الأمير دياب جماعة من قومه، فوصلوا إلى البر، وخرجت الفهود والصقور، تفرق الفرسان تطارد الغزلان.»

«وبقي الأمير دياب وأبو زيد في جهة، وصار الأمير دياب يطارد الشهباء، ويلعب كأنه في الميدان، فصار يعمل مثله أبو زيد، فدار نصف ساعة فصاح فيه، وقال خذها من يد دياب، فالتفت أبو زيد مرعوبًا، فوجد في يد الأمير دياب سنبله قمح، فضحك دياب وعمل هذا الأمر ثلاث مرات، ورابع مرة صاح دياب خذها من يد دياب، فما التفت أبو زيد، وظن أنها ضحكة مثل العادة عند ذلك، لكن الشهباء طلعت كالريح حتى قربت من أبو زيد وصار جنبه، فسحب الدبوس، وضربه على رأسه، فطلع برز مخه فرأس الدبوس، فوقع أبو زيد على الأرض عميان، فوقع الأمير دياب، وقد أخذته الشفقة، فصار إليه يبكي ويلعن الحمق مدة من الزمان، فتح أبو زيد بعينه دياب واقف، فقال له: ما كان ظني فيك يا دياب. ثم تنفس منشدًا:

قال أبو زيد الحزين الهائم	دمعي على خدي سجايم
أيا دياب الخيل يا ولد غانم	أيا صاحب الأفعال بين العوالم
ما كان ظني يا دياب تخونني	وتدعي صحبتك فوق الرديم
ألمتني يا دياب بضربتك	أيا حيفا كنا يا أسير لزايم
مقال الحزين ابن رزق سلامة	لقد سلمت روحي لرب العوالم

فلما فرغ أبو زيد من كلامه والأمير دياب يسمع نظامه دمعت عيناه ونزل إليه وضمه إلى صدره.»

وعلى عادة ما هو ملمح رئيسي بالنسبة لسيرنا وملاحمنا العربية، استرسل أبو زيد المغتال بيد دياب من مرثيته الذاتية، وما علق بها من تراكم ملحمة عبر العصور. وهكذا تخلى عنه دياب مضرجاً في دمه، بنفس ما فعله جساس بن مرة عقب اغتياله لكليب.

«وصار دياب كالمذهول بقومه إلى تونس ودخل إلى سراية الأحكام ونادى باسمه، بل هو تجاسر معلناً قتله لأبي زيد الهلالي، وأنه الحاكم الوريث لتونس والمغرب.» وبكت نساء هلال «القيسيات» ورجالها أبا زيد، وكثرت فيه المراثي، فأنشدت الجازية، عقب دفنه إلى جوار أخيها السلطان حسن:

أبو زيد بالعربان ليس مثاله	بالجود والمعروف وحسن ثبات
حوى حكمة لقمان وجود حاتم	وصبر أيوب وكل صفات
وحاز خصال الخيرين جميعهم	أمير ابن أمير سيد السادات
أبو زيد انظر حالنا وما جرى لنا	وفينا دياب حاكم الأوقات
أصبح على تخت ابن سرحان جالساً	وحاش بيده المال والصهوات
وعادت خيوله غابرة نحو أرضنا	وله مقام يرفع الشدات
أحيف حظ الباب من الجو للوطا	وعادت عصافير الشجر عاديات
عاد الضبع يا ناس للسبع طارده	وعادت عدانا بالهنا فارحات

ثم إن القيسيين أو عرب الشمال بزعامة الجازية تظاهروا بالخضوع لدياب، ووضعوا المناديل في رقابهم علامة الأمان، وخرجوا ينادون: «يا دياب، أنت ملكنا والحاكم علينا، ولا حد منا يعصي لك أمر.» لما نظروه وتقدموا وقبلوا أياديهم ورجليه، وقالوا له: «أنت السلطان ومثلك يليق أن يكون سلطان.»

«ثم دخل الأمير دياب وجلس على كرسي الأمير حسن، وصارت تأتي إليه الأمانة واحد بعد واحد يهنوه، ويدعون له بطول العمر، وأما الجازية والنافلة والحريم والأولاد فإنهم اختلفوا، وعند الليل ركبوا وساروا، وسبقتهم كثير من قومهم، وتسلمن دياب على كل بلاد الغرب، وأمر أن يُنادى باسمه، وأنه هو الملك حاكم بلاد الغرب، وصارت تأتيه الهدايا والتحف ورتب الحكام وعزل.»

«ولما راق باله سأل عن أولاد حسن وأبي زيد، فأخبروه أن الجازية هربت فيهم مع بقية النسوان، وتبعهم ثلاثون ألف نفس من بني دريد وزحلان، فتكدر خاطره وقلوا حميت ظنوا السوء، وما آمنوا إليّ، فأنا لا بد لي أن أذلهم وأقرهم؛ لأنه كان بفكري أن أرتب لهم معاش وأقوم بوصية الأمير أبو زيد، ثم ركب وتبعهم فما لحقهم، فرجع وهو متكدر.»

مصرع دياب وأبناء الشهداء

وما إن سافت الجازية أبناء قتلى بني هلال وشهائها، حتى أرضعتهم من حديد الثأر، وربتهم على القتال عند ملك يُدعى شمعون، بلاده حارة يرجح أنها الحبشة. والسيرة هنا في جزئها الأخير، إنما تؤرخ لجيل تال، أصبحت تطحنه بدوره الحروب القبلية أخذًا للثأر، وتشفيًا بالدم الواحد المراق، الذي أصبحت تغذيه الانقسامات القبلية والعشائرية.

بالإضافة إلى النداءات التحريضية للجازية وموثباتها في اتجاه الحرب، كمثّل إيزيس حين خبأت ابنها المنتقم لأبيه حورس في أحراش الدلتا، إلى أن اشتد ساعده، فقتل عمه ومغتصب عرشه ست أو شنج، والذي هو في موقع دياب بن غانم، الذي كان قد تزوج بامرأة من قومه أو قبيلته اسمها «نسرين»، ذلك أن الحرب كانت قد التهمت كل أبنائه فيما عدا وطفة التي تسمى بها، لكنه أنجب من نسرين أميرًا يدعى نصر الدين، وفي ذات الوقت الذي اعتنت فيه الجازية بتربية اليتامى وأهمهم الأمير بريقع ابن السلطان حسن مع أبناء أبي زيد.

والملفت أن عين دياب بدوره لم تغفل عن نمو الأمراء — الأيتام — وحاول جاهدًا مطاردتهم والتنكيل بحلفائهم وحماتهم أينما كانوا، سواء في مراكش أو الحبشة أو الأندلس، أو حتى من اختبأ واحتمى منهم في نجد والحجاز. حتى إن دياب تحايل باتجاه التودد لبعضهم لاغتيالهم بالمكيدة ذات عيد للحم أو الضحية بإحدى القلاع، على عادة مذابح القلاع الجماعية الخادعة.

فقال لهم: «إن الرأي عندي أن نعمل وليمة على العيد وعندما تجتمعوا أوهموهم واقتلوهم، ولا تدعوا من أكابرهـم أحد.»

«وكان ثاني يوم عيد الضحية، فعمل دياب الوليمة، ومد السماط، وكان شيء يدهش العقول، وعزم بني دريد وأكابرهم، فحضروا ودخل نصفهم، وجلسوا على الطعام، وبقي النصف الآخر على ظهور الخيل، وفي تلك الساعة ارتفع الصياح، وعلا من كل ناحية، ورفع الصوت في بني هلال، وارتجت الأرض من كل مكان، ووقعت الضحية الصحيحة، وإذا بالطبول دقت والرايات ظهرت وانتشرت، والرماح انعكفت، والأصوات ارتفعت، والنساء زغرطت، فعند ذلك سأل عن الخبر، فأخبروه بما جرى من اليتامى، وأنهم نهبوا البوش، وقتلوا الرعيان، وطافوا على البلد من كل مكان، فعند ذلك أرسل دياب إلى ابن أخته بريقع جواباً يهدده بالقتل وبعته مع تجاب، فأخذه وسار إلى بريقع، فأعطاه الكتاب، ففضه وقرأه، وعرف رموزه ومعناه، وقال: الله يعلم إن خالي خرفان، ومراده أن أرد له البوش، ونحن لا نرضى بالبوش ولا بغيره إلا أخذ روحه.»

وهكذا اشتد ساعد بريقع بن أبي زيد، بفضل حنكة الجارية أو الغازية إلى أن راسل خاله دياب بن غانم، وتهدهه بالثأر وطالبه بالقتال.

وفي البداية نازلت الجازية ذاتها دياباً، متنكرة في ثياب فارس في الميدان، لحين استشهادها على هذا النحو الذي تسوقه السيرة:

فعند ذلك برز الأمير دياب إلى الميدان، وقال إلى الجازية: «من تكون أيها الفارس المفترخ على أبناء جنسه؟» فقالت له: «أنا ابن هذا الميدان، فمالك والسؤال؟» فقال لها: «لا أقاتل إلا من كان حسبه من حسبي، ونسبه من نسبي. فقالت له: «ما أكثر منك حسباً ونسباً، أنا الجازية أخت الأمير حسن وصديقة الأمير أبو زيد، وقد جئت لأخذ الثأر.» فضحك دياب حتى استلقى على قفاه، وقال لها: «متى تعلمتِ الفروسية؟ وأنا إن قتلتيـني لا أقاتلك؛ لأنه عار أن أقتل امرأة مثلك؛ لأنه لا يليق بي هذا الأمر، وإذا قتلتك يقول الناس دياب عامر ملوك الأرض بالطول والعرض يبرز لحرب امرأة، روعي أرسلني الأمارة.» فقالت له: «ما أروح من هنا حتى أحاربك يا خائن يا غدار.» فقال: «يا جازية، بطلي كلامك الفشار، وارجعي إلى أولاد الأمارة أتنعم بأبائهم.» فقالت: «ما بالك ولهذا الكلام؟ انزل الميدان حتى أذيقك الموت؛ لأنك رديء خائن، وما جزاك إلا قطع رأسك.» فلما سمع دياب كلامها لعبت برأسه نخوة

الرجال، فرفع رجله وضربها على جبينها بقوة عزمه، رفعها عن الحصان ٨ أذرع، فوقعت على الأرض ميتة، فقال أولاد الأمانة: «موت عمتكم؛ لأنها قد تطاولت، فنالت جزاها.» رجع دياب محزون عليها وقال في باله: «الله يلعن الشيطان ما كان لازم هذا أمره.» وأما الأمانة أخذوا الجازية كفنوها، وعملوا عليها مناحة عظيمة.

«وفي ثاني يوم برز بريقع إلى الميدان، فبرز إليه دياب والتقيا. فلما نظرهم دياب ضحك وقال: والله مرادي أقاتلكم بلا درع وعلى كديشة عرجا. فمنعوه قومه، وقالوا له: أنت رجل كبير فما نسلم معك على ذلك. فبرز دياب بلا درع، وما معه إلا السيف والترس، فالتقاه الأمير بريقع، ووقع القتال، وانحدفوا اليتامى مرة واحدة، فالتقاهم وصاح فيهم صيحة ارتجت منها الجبال، وأراد أن يضرب بريقع بالسيف يقطعه قطعتين، فطرحه شيبان بالرمح من بعيد، وقع في جنبه دياب على الأرض من عظم الألم، فعند ذلك تقدموا الأمانة، وقال له بريقع: كيف حالك الآن؟ ثم تنفس دياب، وقال: أنا شبعنت من الدنيا، وهذه مقدار كل مودة، ولها سبب، وأشكر الله الذي مت قاتل أولاد حسن وأبو زيد ولا قتلني أحد غريب. فلما فرغ دياب من كلامه، غاب عن الوجود مقدار ساعة، ثم أفاق وصار يودع الدنيا:

مقالات الزغبى دياب بن غانم أيا موت قد زرتنا ثم دنوت»

«وبعد أن مات قال بريقع: أحضروا السكين التي ذبح بها أبي، فأحضروها، فقطع بها رأس دياب، وفصله عن جسده وتركه ورجع، فأتوا قوم دياب فأخذوه، وكثروا عليه البكاء والعويل، ومزقوا ثيابهم وناحوا وصاحوا، وسرجوا الخيول سود، ورفعوا البيارق السود، ودقت طبول الحزن، واجتمعت الأمانة من كل ناحية، وعند ذلك دفنوه.»

«وجلس بريقع ملك على بلاد الغرب، وراقت له الأحوال من نسرين زوجة دياب، فإنها لما قُتل زوجها قالت لابنها: «لا بد من أن أولاد عمك يعملون حيلة عليك، ويقتلونك ويرتاحوا من دياب، ويخافون منك لئلا تأخذ تأرك منهم، فهيا اركب الشهباء وسير عند أحد أصحاب أبوك.» فبينما يصير وقت مناسب لأخذ الثأر، فعند ذلك ركب نصر الدين على الشهباء، وأخذ أمه وراءه وبالطبع هربا.»

وما إن ينتقل بنا راوي^١ السيرة — المحايد — من جانب منتصر، مثل قتل بريقع المنتصر ابن أبي زيد الهلالي، لدياب بن غانم، حتى يعود ملاحقًا — سلسال — جانب الصراع المقابل، وهو هذه المرة الأميرة الثاكلة — نسرين — زوجة دياب المغتال، التي بدورها خبأت ابنها نصر الدين في أحراش القبائل الحليفة بدءًا باليمن، وانتهاءً بالحبشة وغرب إفريقيا حتى الأندلس، لحين اشتداد ساعد نصر الدين بن دياب الطفل، ليكبر منتقمًا لأبيه، وهو ما تحقق حين نازل نصر الدين بريقع بن أبي زيد قاتل والده دياب، «فقسمه عن جواده أربع قطع»، فعندها دخل نصر الدين إلى تونس، ودخل قصر أبيه دياب وتسلط على كل الغرب، وهذا في نص السيرة.

^١ سيرة الأجيال.

